الثبات على الدين

الطبعة الأولى ١٤٤٣ هـ

أسباب الثبات

على الدين

تأليف

محمد شومان الرملي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه الكريم، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

أما بعد، فإن الله عز وجل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

وهذا أمر بتقوى الله عز وجل بقدر الطاقة، والثبات[١] على الإسلام مدة الحياة، لا ينقطع العبد عنه أبدًا، بحيث لو أتاه الموت في أي لحظة كان كذلك.

وبهذه الآية صَدّر النبي ﷺ خطبة الحاجة.

وبالثبات على الإسلام والدوام عليه وصّى خليلُ الله وكذلك نبيُّه يعقوب عليهما الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۞ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢-١٣٣].

وبه دعا يوسفُ الصدّيق عليه الصلاة والسلام لما تم له الأمر ومكن الله له في الأرض، فقال: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩].

---

(١) المقصود بالثبات: الدوام والاستقامة على الدين، ولزوم الصراط المستقيم، وهو سبيل الله عز وجل، وسبيل رسوله ﷺ، وسبيل المؤمنين، وعدم الانحراف عنه يمنة ولا يسرة، إلى غيره من سُبُل الضلال، والاستمرار عليه إلى الممات، دون تراجع ولا تردد ولا تشكك. وأصله في اللغة: الدوام على الشيء، وهو ضد الزوال.

يعني: الموت[1].

وفي المداومة على الصلاة خصوصًا قال تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج:٢٣].

وقال سبحانه حاكيًا عن المسيح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيًّا﴾ [مريم:٣١].

وعن كعب بن مُرّة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[2].

قوله ﷺ: (من شاب شيبة في الإسلام)، المقصود بذكر فضل الشيب وهو في الإسلام: الحث على الاستمرار على الدين والثبات عليه.

وعن عبد الله بن شداد رضي الله عنه، أن نفرًا من بني عُذْرَةَ ثلاثةً، أَتَوْا النبيَّ ﷺ فأسلموا. الحديث. وفيه:

«لَيْسَ أَحَدٌ أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَمَّرُ فِي الْإِسْلامِ، لِتَسْبِيحِهِ، وَتَكْبِيرِهِ، وَتَهْلِيلِهِ»[3].

وإن نعمة الإسلام والدين، والإيمان واليقين، والهداية إلى الصراط المستقيم، هي أعظم النّعم، وأجل ما يُعطاه الإنسان في هذه الدنيا، وأفضل ما يَمُنّ به الله تعالى على عباده، فبها فلْيفرحوا، وإياها فلْيعظّموا، وبها فلْيتمسكوا ويتشبثوا، وعليها فلْيحافظوا ويثبتوا، واللهَ عليها فلْيحمَدوا ولْيشكروا: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ

(١) قال ابن كثير: «ويُستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس، وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة».

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٣٤) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٣/١) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٦٥٤).

فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨].

وعن طلق بن حبيب قال: إن حقوق الله تعالى أعظم من أن يقوم بها العباد، وإن نعمة الله أكثر من أن تحصى، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين[١].

قال ابن رجب[٢]: «يشير إلى أن المؤمن لا ينبغي أن يصبح ويمسي إلا على توبة، فإنه لا يدري متى يفاجئه الموت، صباحًا أو مساءً، فمن أصبح أو أمسى على غير توبة فهو على خطر، لأنه يُخشى أن يَلقى اللهَ غيرَ تائب، فيُحشر في زمرة الظالمين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات:١١]».

وإنما يكون الثبات بالتمسك بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، علمًا وعملًا، فيتبع هديه ﷺ وسبيله ظاهرًا وباطنًا، في هيئته ولباسه وسائر هديه الظاهر، وفي إيمانه وأخلاقه وسائر هديه الباطن[٣]، ويترك سبيل من خالفه، من الكافرين والضالين والمبتدعين والفاسقين، ظاهرًا وباطنًا، خصوصًا اليهود والنصارى، ولا يتشبه بهم، فإن «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[٤]، كما قال ﷺ[٥].

وقد وقع التأكيد عليهم والتحذير من اتِّباع سَنَنهم خاصة.

---

(١) «الزهد والرقائق» (١/١٠١).

(٢) «لطائف المعارف» (ص ٣٤٤).

(٣) ولتحقيق هذا على أكمل وجه، انظر ما سيأتي عند ذكر شرط «المتابعة للنبي ﷺ» ضمن شروط قبول الأعمال، تحت عنوان: «الدنيا امتحان».

(٤) قال شيخ الإسلام: «المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة». إلى أن قال: «فإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية تورث المحبة والموالاة! فكيف بالمشابهة في أمور دينية؟! فإن إفضاءها إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد، والمحبة والموالاة لهم تنافي الإيمان». «اقتضاء الصراط» (ص ٢٢٢).

وقال ابن القيم: «ونهى [ﷺ] عن التشبه بأهل الكتاب وغيرهم من الكفار في مواضع كثيرة، لأن المشابهة الظاهرة ذريعة إلى الموافقة الباطنة، فإنه إذا أشبه الهَدْيُ الهَدْيَ أشبه القلبُ القلبَ». «إغاثة اللهفان» (١/٣٦٤).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٠٣١) وغيره، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

قال الله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«اليَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضُلَّالٌ»[١].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، آلْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟!»[٢].

قال ابن أبي العز الحنفي في «شرح الطحاوية»: «كل من عَدَل عن اتباع سنة الرسول، إن كان عالمًا بها فهو مغضوب عليه، وإلا فهو ضال، ولهذا شرع الله لنا أن نسأله في كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، غير المغضوب عليهم ولا الضالين». اهـ.

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [النور:٥٤].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾، يقول تعالى ذكره: وإن تطيعوا أيها الناس رسول الله فيما يأمركم وينهاكم ترشدوا وتصيبوا الحق في أموركم». اهـ.

وهذه كلمات يسيرة مختصرة، ذكرت فيها أهم أسباب الثبات[٣] على الدين والتمسك به، كنت قد أرسلت أصلها إلى بعض الإخوة، ثم رأيت أن أدوّنها هنا،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥٤) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) متفق عليه.

(٣) وأصل الثبات ثبات القلب، وتتبعه بعد ذلك الجوارح، فإن القلب هو المَلِك والجوارح هي الجنود، فيثبت اللسان بالقول الثابت، وتثبت الأقدام، وكثيرًا ما يُنسب الثبوت والزلل إليها، لأنه هو المرئي للعين، فهي التي تثبت وهي التي تزل وتزلق فيما يُرى.

لِيَعُمَّ نفعها، وتَسهُل الاستفادة منها، بإذن الله تعالى.

ولو ذهبت أستطرد فيها لاحتملت مجلدًا ضخمًا، لكن تركتها هكذا مفاتيح بيد العاقل، تُولِـجه على ما وراءها، واللبيب تكفيه الإشارة عن طول العبارة.

وأيضًا، فإن التطويل في مثل هذه المواضيع قد يؤدي أحيانًا إلى الملل، فيؤدي إلى ضد ما يرومه الكاتب منها.

ومن القراء من يحب التفصيل فيما يعجبه، ويتمنى لو تضاعف حجمه أضعافًا كثيرة! والاعتدال طيب محمود، ينتفع منه أكثر الناس، أو لِيختصرِ الكاتب في موضعٍ ويُفَصِّلْ في آخر.

هذا، والأذواق متنوعة جدًّا، والمدارك مختلفة كثيرًا، والأمر واسع.

من أجل ذلك، ولأنني اختصرت هاهنا، لا أتردد في تحويل قارئي إلى كتابي «معاتبة النفس»، وهو يفي بالغرض في هذا الموضوع، وفي عامة أبواب التزكية والأخلاق والسلوك، بإذن الله عز وجل.

وبه سبحانه التوفيق، ومنه الهداية.

محمد شومان ١٤٤٣هـ

الإيمان بأن دين الله حق

اعلم أن أول أسباب الثبات على الدين وأهمها وأعظمها: الإيمان والتصديق التام والجزم بأن دين الله عز وجل حق، وعبادته حق، وتجديد هذا الإيمان باستمرار، وتحديث النفس به دائمًا.

قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف:٤٣].

فهذا أمر بالتمسك بما أُوحي إليه ﷺ من الدين، لأنه على الحق وعلى الطريق المستقيم.

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر:٢].

وقال سبحانه: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل:٧٩].

أي: اعتمد على الله في جميع أمورك، وثق بكفايته لك، وحفظه إياك في دينك ودنياك، فإنك على الحق الواضح، ومن أيقن أنه على الحق ثبت عليه، وتمسك به، ودعا إليه، وبلغه ونشره، وجاهد في سبيله، واكتفى بالله ربه وكيلًا يحفظه، ويعينه على أمور دينه ودنياه.

هذا، وربِّ السموات والأرض إن الله عز وجل لحق، وإن دينه حق، وإن كتابه حق، وإن رسوله ﷺ حق، وإن شرعه وأوامره ونواهيه حق، وإن الجنة والنار حق، وإن البعث حق، كل ذلك حق يقيني، لا شك فيه ولا مرية فيه.

وهذا ما بدأ الله عز وجل به كتابه العظيم، فقال سبحانه: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١-٢].

وقوله تعالى: ﴿ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾، «ريب» نكرة في سياق النفي، فتعم الريب بكل أنواعه، ويستلزم أن الحق والصدق واليقين كل اليقين فيه.

فافتتاح الإله العظيم كتابه بنفي الريب عنه له شأنه وحكمته!

وعادة المخلوقين في بداية كتبهم أن يعتذروا عن خلل سيأتي! فلو أسلم كافر من تأمل هذا لحقّ له، وقيل: قد وقع هذا حقيقة، فسبحان العليم الحكيم!!

وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

فهذا تحدٍّ لجهابذة الفصاحة وأساطين البلاغة قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا، فلم يأتوا بمثله! وإنما أتى واحد أو اثنان منهم بكلام معدود غبي، يضحك منه الصبي! فكيف يكون ـ بالله ـ التحدي به الآن؟! وفصيح اليوم يَضحك منه أعرابيُّ الأمس!!! فهل من مدّكِر؟!!!

ولم يقف الأمر عند هذا، بل وقع التحدي على الإنس والجن كلهم مجتمعين!!! فقال سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨].

وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود:١٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج:٥٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ [الحاقة:٥١].

وقال سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٢-٣٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال:

«اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ». الحديث[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

فمعرفة الله تعالى بربوبيته للسموات والأرض وما بينهما، ومعرفة أسمائه الحسنى، وما تضمنته من صفات عُليا، وتفرده سبحانه في ذلك، يوجب الحب العظيم له، مع غاية الذل، وغاية التعظيم، ويوجب بذل الجهد في العبادات والطاعات، والاصطبار عليها، باطمئنان نفس، دون شكوى ولا ضجر، وأدائها على أحسن وجه وأكمله، بل والرغبة الشديدة فيها، والتنعم بها، حتى تغدو قرة عينه، وسرور قلبه، ويوجب إفراده سبحانه بذلك، دون ما سواه، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

فهذه الآية العظيمة[2] جمعت أنواع التوحيد الثلاثة، ودلت على أن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء يستلزم توحيد العبادة، فتأمل!

---

(١) متفق عليه.

(٢)أعني: قوله تعالى:. ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

وقال ابن سعدي: «﴿ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾؛ أي: هل تعلم لله مساميًا ومشابهًا ومماثلًا من المخلوقين؟! وهذا استفهام بمعنى النفي المعلوم بالعقل؛ أي: لا تعلم له مساميًا ولا مشابهًا، لأنه الرب وغيره مربوب، الخالق وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فلهذا أمر بعبادته وحده والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنى».

وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١).

قال شيخ الإسلام(٢): «وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من بلغته رسالة النبي ﷺ فلم يؤمن به فهو كافر، لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد، لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة».

وعن جابر بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب، أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ، فغضب وقال:

«أَمُتَهَوِّكُونَ(٣) فِيهَا يَا بْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا

---

(١) أخرجه مسلم وغيره.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢/٤٩٦).

(٣) التهوك كالتهور، وهو الوقوع في الأمر بغير روية، والمتهوك: الذي يقع في كل أمر. وقيل: هو التحيُّر. «نهاية».

بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»(١).

تدينك لنفسك

ثم بعد ذلك أن تعلم أن تدينك واهتداءك إنما هو لنفسك، والله عز وجل غني عنك وعن طاعتك وعن عبادتك، وأن فائدتها وعائدتها من جلب المحبوب المرغوب ودفع المكروه المرهوب ترجع إليك، فاثبت على دين الله عز وجل وتمسك بهداه من أجل نفسك ومن أجل سعادتها في الدنيا والآخرة.

قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس:١٠٨].

وقال تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء:١٥].

وقال سبحانه: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام:١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت:٦].

بل قال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٧٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ [النساء:١٣١].

وقال: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [الزمر:٧]. الآية.

وقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٨].

و قال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: يا أيها الناس أنتم أولو الحاجة والفقر إلى

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٦٣١ و١٥١٥٦) وحسنه الألباني في «الإرواء» (١٥٨٩).

ربكم، فإياه فاعبدوا، وفي رضاه فسارعوا، يُغْنِكم من فقركم، وتُنْجِح لديه حوائجكم، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾عن عبادتكم إياه وعن خدمتكم، وعن غير ذلك من الأشياء، منكم ومن غيركم، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: يعني: المحمود على نعمه، فإن كل نعمة بكم وبغيركم فمنه[١]، فله الحمد والشكر بكل حال».

وفي الحديث القدسي العظيم الشهير: عن سعيد بن عبد العزيز، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخَوْلاني، عن أبي ذر، عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ». قال سعيد: كان أبو إدريس الخَوْلاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه[٢].

---

(١) كما سيأتي الآن.

(٢) أخرجه مسلم (٤٢٥٧) وغيره.

الاعتراف بفضل الله تعالى

ومن أعظم أسباب الثبات: العلم والإيمان والاعتراف بأن الثبات وكلّ النعم والخير الذي في العبد، ودينَه وإيمانه واهتداءه، وعباداته وطاعاته وأعماله الصالحة، وصلاح قلبه وزكاة نفسه وحسن خلقه، وسلامته من الشرك والكفر، والبدع والمعاصي، وخُلُوَّه من سيّء الأخلاق والأعمال، كل ذلك من فضل الله تعالى عليه ورحمته به، ولولاه ما حصّل ولا أدرك ولا نال شيئًا من ذلك، وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله عز وجل.

وإذا كان الله تعالى قد قال لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٤].

وقال له: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٣].

فكيف بمن دونه ﷺ؟!!

وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى:٥٢]. الآية.

وقال سبحانه: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٦-٨٧].

وقال تبارك اسمه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى

ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:٥١].

وقال سبحانه: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران:١٦٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ * فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [الحجرات:٧-٨].

قال ابن القيم[1]: «فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها، ولكن هو الله الذي مَنّ بهما، فجعل العبدَ بسببهما من الراشدين، ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾، عليم بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه، ويثمر عنده، حكيم فلا يضعه عند غير أهله، فيضيعه بوضعه في غير موضعه». اهـ.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النساء:٨٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [النور:٢١].

قال ابن كثير: «أي: لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه، ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودسها، وما فيها من أخلاق رديئة، كل بحسبه، لما حصّل أحد لنفسه زكاة ولا خيرًا» **اهـ.**

وعن البراء رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق،

---

(١) «مدارج السالكين» (٢٣٦/١).

حتى أغمر بطنه، أو اغبر بطنه، يقول:

«وَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا، إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا». ورفع بها صوته: «أَبَيْنَا أَبَيْنَا»(١).

فليحذر العبد من رؤية نفسه وجهده فيما أولاه الله من نعمة الهداية وسائر النعم، ولْيجعل مَفْزَعَه كلما رأى من نِعَم الله عليه في العلم والعمل قوله: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، كما قال سبحانه حاكيًا عن مقولة الرجل المؤمن وهو يحاور صاحب الجنتين:

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [الكهف:٣٩].

فرؤية أن النِّعم من الله تعالى هو أعظم سبب لحفظها من الزوال، وداعٍ إلى تعظيمها ومعرفة قدرها.

وذلك لأن آفة النعمة التي عندك أن تنسبها إلى نفسك وجهدك واستحقاقك لها، فتُعرِض ولا بد عن شكرها، فتكون بذلك كأنك جحدتها، وكفرت منعمها، وآذنت بزوالها، فالتخلص من هذه الآفة العظيمة بقولك صادقًا: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وبالمقابل آفة ما عند غيرك من النِّعمة أن تحسده عليها وتتمنى زوالها، والتخلص من هذه الآفة أن تدعو له بالبركة.

وإن كانت كل النِّعم بمشيئة الله لا بمشيئته ولا بمشيئة صاحبه، لكن هنا هو الذي لا يخطر بباله أن النعمة على غيره بمشيئة المنعَم عليه واستحقاقه، فإن آفة الحسد تمنع من ذلك.

وهذا هو السر في قول: «ما شاء الله ...» لنفسه، والدعاء بالبركة لغيره.

---

(١) متفق عليه.

قال ابن القيم: «لا ينتفع بنعمة الله بالإيمان والعلم إلا من عرف نفسه، ووقف بها عند قدرها، ولم يتجاوزه إلى ما ليس له، ولم يتعد طَوره، ولم يقل: هذا لي. وتيقن أنه لله وبالله ومن الله، فهو الإيمان به ابتداء وإدامة، لا سبب من العبد ولا استحقاق منه، فتُذِلّه نعمُ الله عليه وتكسره كسرة من لا يرى لنفسه ولا فيها خيرًا البتة، وأن الخير الذي وصل إليه فهو لله وبه ومنه، فتُحدِث له النعم ذلًّا وانكسارًا عجيبًا لا يعبَّر عنه، فكلما جدد له نعمة ازداد له ذلًّا وانكسارًا وخشوعًا ومحبة وخوفًا ورجاء، وهذا نتيجة علمين شريفين: علمه بربه وكماله وبره وغناه وجوده وإحسانه ورحمته، وأن الخير كله في يديه، وهو ملكه يؤتي منه من يشاء ويمنع منه من يشاء، وله الحمد على هذا وهذا أكمل حمد وأتمه، وعلمه بنفسه ووقوفه على حدها وقدرها ونقصها وظلمها وجهلها، وأنها لا خير فيها البتة ولا لها ولا بها ولا منها، وأنها ليس لها من ذاتها إلا العدم، فكذلك من صفاتها وكمالها ليس لها إلا العدم الذي لا شيء أحقر منه ولا أنقص، فما فيها من الخير تابع لوجودها الذي ليس إليها ولا بها، فإذا صار هذان العلمان صبغة لها لا صيغة على لسانها علمت حينئذ أن الحمد كله لله، والأمر كله له، والخير كله في يديه، وأنه هو المستحق للحمد والثناء والمدح دونها، وأنها هي أولى بالذم والعيب واللوم، ومن فاته التحقق بهذين العلمين تلونت به أقواله وأعماله وأحواله وتخبطت عليه، ولم يهتد إلى الصراط المستقيم الموصل له إلى الله، فإيصال العبد بتحقيق هاتين المعرفتين علمًا وحالًا، وانقطاعه بفواتهما، وهذا معنى قولهم: من عرف نفسه عرف ربه، فإنه من عرف نفسه بالجهل والظلم والعيب والنقائص والحاجة والفقر والذل والمسكنة والعدم عرف ربه بضد ذلك، فوقف بنفسه عند قدرها ولم يتعدّ بها طورها، وأثنى على ربه ببعض ما هو أهله، وانصرفت قوة حبه وخشيته ورجائه وإنابته وتوكله إليه وحده، وكان أحب شيء إليه، وأخوف شيء عنده، وأرجاه له، وهذا هو حقيقة، العبودية والله المستعان.

ويحكى أن بعض الحكماء كتب على باب بيته: إنه لن ينتفع بحكمتنا إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها، فمن كان كذلك فليدخل، وإلا فليرجع حتى

يكون بهذه الصفة». اهـ.

قلت: وليحذر كل الحذر من أن يمدح نفسه أو يزكيها، وينسى منة الله تعالى عليه، وأنه لولا فضله عليه ورحمته ما وصل إلى شيء من الخير، ولا قَوِي على اجتناب شيء من الشر، قال عز وجل: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٩].

بل الأولى به أن يستعيذ بالله من شرها، وأن يلجأ إليه سبحانه ألا يَكِله إليها، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله، مُرْنِي بكلمات أقولهُنَّ إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ قال:

«قُلِ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَ[مِنْ] شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، [وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ]».

قال: «قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ»(١).

وعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لفاطمة:

«مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ؟! أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ [أَبَدًا]»(٢).

وقال النبي ﷺ: «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، [وَ]أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧)، واللفظ له، والترمذي (٣٣٩٢)، وله الزيادة الأولى، وغيرهما، والزيادة الثانية للترمذي (٣٥٢٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. وصحح الألباني الحديثين.

(٢) أخرجه النسائي (رقم ٥٧٠)، وابن السني (رقم ٤٨)، والزيادة له، كلاهما في «عمل اليوم والليلة»، وغيرُهما. وهو في «الصحيحة» (٢٢٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، وأحمد (٢٠٤٣٠ - ط الرسالة)، وغيرهما، وحسنه الألباني.

قال ابن القيم[(١)]: «أجمع العارفون بالله على أن الخِذلان: أن يكلك الله إلى نفسك، ويخلي بينك وبينها، والتوفيق: أن لا يكلك الله إلى نفسك».

وقال[(٢)]: «فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخِذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا، فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه ويُسخطه ويغفل عنه بخِذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخِذلانه، فإن وفقه فبفضله ورحمته، وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو المحمود على هذا وهذا، له أتم حمد وأكمله، ولم يمنع العبد شيئًا هو له، وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله؟

فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كل نَفَس وكل لحظة وطرفة عين، وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى، لو تخلى عنه طرفة عين لَثُلّ عرش توحيده، ولخرت سماء إيمانه على الأرض، وأن الممسك له هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه».

ووصف رحمه الله النفس بالظلم والجهل، وذكر أن هذين الوصفين يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح، ثم قال[(٣)]: «ومَنْ وَصْفه الجهل والظلم لا مطمع في استقامته واعتداله البتة، فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل، والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم، ومع هذا فجهلها أكثر من علمها، وظلمها أعظم من عدلها».

قال: «فحقيق بمن هذا شأنه: أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يَقِيَه شرها، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها، فهو خير من زكاها، فإنه ربها ومولاها، وأن لا يكله إليها طرفة عين، فإنه إن وَكَله إليها هلك، فما هلك من هلك إلا حيث وُكِل إلى نفسه». اهـ

(١) «إغاثة اللهفان» (١/١٨٠).

(٢) «مدارج السالكين» (١/٤١٣).

(٣) «مدارج السالكين» (١/٢٢٠).

وقال[1]: «ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله عز وجل، واستكثار ما منه، واستقلال ما منك من الطاعات. ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان».

معرفة قدر نعمة الهداية

ومن أسباب الثبات: معرفة قَدْر ما هو فيه من النعمة، وأن الله اختاره دون كثير من خلقه للإيمان والعبادة، وهيأه للجنة دار السعادة، وأنقذه من النار دار الشقاوة، وشرّفه في أن يكون مسلمًا مؤمنًا محسنًا، داعيًا إلى الله تعالى، وإلى دينه، فهو المسلم العزيز الكريم، الطاهر العفيف، ذو الحياة الطيبة، والأجر الحسن، وهو في أعلى مرتبة لو كان يعلم! وأشرف منزلة لو كان يعقل!

قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء:١٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

قال القاسمي[2]: «هذا وعد منه تعالى لمن عمل صالحًا، وهو العمل التابع لكتاب الله وسنة رسوله، من ذكر أو أنثى، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت، بأن يحييه الله تعالى حياة طيبة.

قال المهايمي: أي فيتلذذ بعمله في الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه، ولا يبطل تلذذه إعساره، إذ يرضيه الله بقسمته فيقنعه ويقل اهتمامه بحفظ المال

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٣٠).

(٢) «محاسن التأويل» (١٠/١٥٦).

وتنميته، والكافر لا يهنأ عيشه بالمال والجاه، إذ يزداد حرصًا وخَوْفَ فوات، ويُجزون بالأحسن في الآخرة، فلا يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف:٢٠]. بل يُكَمَّل جزاءُ أعمالهم الأدنى بحيث يُلحق بالأعلى. انتهى.

وعندي أن الحياة الطيبة هي الحياة التي فيها ثلج الصدور بلذة اليقين، وحلاوة الإيمان، والرغبة في الموعود، والرضا بالقضاء، وعتق الروح مما كانوا يُستعبدون له، والاستكانة إلى معبود واحد، والتنوّر بسر الوجود الذي قام به، وغير ذلك من مزاياه المقررة في مواضعها، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة، فله الجزاء الأحسن، والثواب الأوفى». انتهى كلام القاسمي.

قال ابن القيم(١): «وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته، فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

وقد فُسِّرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضا، والرزق الحسن، وغير ذلك، والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان، ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إنْ كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب».

إلى أن قال: «فذِكْر الله سبحانه وتعالى ومحبته وطاعته والإقبال عليه ضامنٌ لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة، والإعراض عنه والغفلة ومعصيته كفيل بالحياة المنغصة والمعيشة الضَّنْك في الدنيا والآخرة». اهـ.

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/٢٥٩).

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

فالنعمة الحقيقية والسعادة الحقيقية يا عبد الله إنما تكون بما مَنّ الله به على عباده من إنزال الكتاب على نبيه ﷺ، يعلمهم ما فيه ويزكيهم به، وبما هداهم إليه من الإسلام والإيمان، والثبات عليه، مما يضمن لهم الهداية إلى مصالح الدنيا والدين، وسعادة الأولى والآخرة، وهو أعظم مننه سبحانه عليهم، وأجل نعمه، وأكبر عطاياه لهم، فبه فليفرحوا.

قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨].

قال ابن سعدي: «﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ ﴾، الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنة وفضل تفضل الله به على عباده، ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾؛ الدين والإيمان وعبادة الله ومحبته ومعرفته، ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾، من متاع الدنيا ولذاتها.

فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا مما هو مضمحل زائل عن قريب.

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته، لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما». اهـ.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر:٨٧-٨٨].

فسورة تؤتاها من كتاب الله عز وجل أو آية خير من الدنيا وما فيها، وركعتان تصليهما لله تعالى خير من الدنيا وما فيها، ولأن تقول: سبحان الله،

والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خير من الدنيا وما فيها.

قال الله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف:٤٦].

فأي شيء هي الدنيا؟! وأي شيء هي في جنب جنة الدنيا من العلم والإيمان، والتنعم بطاعة الرحمن؟!! ثم أي شيء هي في جنب جنة الآخرة والفوز بالرضوان؟!!! فانظر بالله يا عبد الله: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ يُحِبُّهُ، كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، تَخَافُونَ عَلَيْهِ»(١).

فمعرفتك قدر نعمة الهداية والعبادة والأعمال الصالحة داع إلى الثبات عليها والتمسك بها والزيادة منها.

الشكر

وهذا ـ أعني معرفة أن الفضل كله بيد الله عز وجل وأن الهداية منه، ومعرفة قدر منته وفضله بذلك ـ يوجب على العبد الشكر لله عز وجل، وهو سبب عظيم، بل أعظم أسباب حفظ النعم والزيادة فيها؛ نعمة الثبات على الدين، وسائر النعم الدينية والدنيوية.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم:٧].

قال صالح بن جناح الدمشقي لابنه(٢): «يا بني، إذا مر بك يوم وليلة قد سَلِم فيها دينك وجسمك ومالك وعيالك فأكثر الشكر لله تعالى، فكم من مسلوب دينُه ومنزوع ملكه ومهتوك ستره ومقصوم ظهره في ذلك اليوم وأنت في عافية!».

---

(١) أخرجه الحاكم (٢٣١/٤) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (٣١٧٩).

(٢) «تاريخ دمشق» (٣٢٥/٢٣-٣٢٦).

الاستعانة بالله

وهذا مما ينبه على سبب عظيم للثبات ويُعَرَّف قدرَه، وهو: الاستعانة بالله عز وجل على طاعته.

فكما أنك في أشد الحاجة إلى عبادة الله تعالى والثبات عليها فإنك أيضًا في أشد الحاجة إلى الاستعانة به عز وجل على العبادة، فلا حول لك ولا قوة إلا به.

قال سبحانه وتعالى معلمًا عباده ومرشدًا إياهم إلى ما يقولونه في صلاتهم في كل ركعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

وقال سبحانه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

وآيات أخرى مشابهة، تجمع أصلي الدين وركنيهما العظيمين هذين؛ العبادة والاستعانة.

قال شيخ الإسلام(١): «والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة: وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل: وهي العلة الفاعلة، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطُّمَأنينة.

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإنه لو أُعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادة الله، فلن يحصل إلا على الألم

---

(١) «العبودية» (ص ٩٧-٩٨).

والحسرة والعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله، بحيث يكون الله هو غاية مراده ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله، لا يحب شيئًا لذاته إلا الله، ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة «لا إله إلا الله»، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك.

ولو سعى في هذا المطلوب ولم يكن مستعينًا بالله متوكلًا عليه مفتقرًا إليه في حصوله لم يحصل له، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن حيث هو المسؤول المستعان به المتوكل عليه، فهو إلهه الذي لا إله له غيره، وهو ربه الذي لا رب له سواه، ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين».

وقال[1]: «وقد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدّهم نظرًا ويعميه [الله] عن أظهر الأشياء، وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظرًا ويهديه لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، فلا حول ولا قوة إلا به، فمن اتكل على نظره واستدلاله أو عقله ومعرفته خُذِل».

وقال: «إن العبد مفتقر إلى الله في أن يحبب إليه الإيمان ويبغّض إليه الكفر، وإلا فقد يعلم الحق وهو لا يحبه ولا يريده، فيكون من المعاندين الجاحدين، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]».

كيفية الشكر

والشكر يكون باللسان: بأن تحمد الله سبحانه وتعالى على ما أولاك من نعمة الإيمان واليقين، والاستقامة على الصراط المستقيم، وتُحدِّث بذلك لا من باب الفخر ورؤية النفس والترفع على الخلق، إنما من باب الشكر والثناء على

---

(١) انظر «درء التعارض» (٣٤/٩ و٣٥).

الله تعالى، وأنك ليس لك من الأمر شيء، إنما هو محض فضل ربك عليك، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١].

ويكون بالجوارح: ببذل الجهد في طاعة الله تعالى، من صلاة وصيام وصدقة وغيرها، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:١-٢].

وقال سبحانه: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تَفَطَّر رجلاه، قالت عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غُفِر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال:

«يَا عَائِشَةُ، أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:

«يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»(٢).

قوله: (على كل سلامى)، قال النووي(٣): «أصله عظام الأصابع وسائر الكف، ثم استُعْمِل في جميع عظام البدن ومفاصله».

ويكون مع قول اللسان وعمل الأركان متواطَئًا عليه بالجَنان، خضوعًا واستكانة ومحبة لمن أنعم عليك وهداك، وتفضل عليك وأعطاك، واختارك من دون كثير من خلقه لتكون مسلمًا مؤمنًا، عبدًا لله مطيعًا، وهداك لدار السعادة والفوز

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه مسلم (٧٢٠).

(٣) «شرح مسلم» (٥/٢٣٣).

العظيم، ونجاك من دار الشقاوة والخسران المبين، إضافة إلى ثواب ذلك في الدنيا، من الحياة الطيبة(١)، المليئة بالطُّمأنينة والرضا والقناعة وراحة البال، والسلامة مما يجده أهل الدنيا من المنغصات وآلام التعلق بشهوات الدنيا، وكد السعي في تحصيلها، وما يحصل لهم من العقوبات والشقاء بسبب المعاصي والبعد عن دين الله تعالى، الذي فطر الناس عليه، وأراد لهم به الرحمة، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٣-١٢٤].

ويكون الشكر أيضًا باجتناب ضد ذلك، من معاصي القلب واللسان والجوارح.

فإذا أيقنت يا عبد الله بغناه سبحانه وتعالى عنك، وشدة فقرك إليه، وعظيم حاجتك إليه، وعرفت جلاله وكبرياءه وما يستحق من التعظيم والعبادة والثناء والحمد، وعرفت بالمقابل نفسك وضعفها، وتقصيرها في أداء شكر بعض نعمه عليك، خضع قلبك له سبحانه، وذلت نفسك، ولهج لسانك بشكره والاعتراف بفضله، والاعتراف بتقصيرك، مهما كانت عباداتك، ورجوته سبحانه أن يشملك بعفوه ومغفرته ورحمته.

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت:

فَقَدْتُ رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعتْ يَدِي على بطن قدميه، وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول:

«اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»(٢).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن رسول ﷺ كان يقول في آخر وتره:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَ[أَعُوذُ] بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ

---

(١) كما تقدم.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) وغيره.

بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[١].

قال ابن القيم[٢]: «عبودية النعم: معرفتها والاعتراف بها أولًا، ثم العياذ به أن يقع في قلبه نسبتُها وإضافتها إلى سواه، وإن كان سببًا من الأسباب فهو مسببه ومقيمه، فالنعمة منه وحده بكل وجه واعتبار، ثم الثناء بها عليه، ومحبته عليها، وشكره، بأن يستعملها في طاعته.

ومن لطائف التعبد بالنعم: أن يستكثر قليلها عليه، ويستقل كثير شكره عليها، ويعلم أنها وصلت إليه من سيده من غير ثمن بذله فيها، ولا وسيلة منه توسل بها إليه، ولا استحقاق منه لها، وأنها لله في الحقيقة لا للعبد، فلا تزيده النعم إلا انكسارًا وذلًّا وتواضعًا ومحبة للمنعم، وكلما جدد له نعمة أحدث لها عبودية ومحبة وخضوعًا وذلًّا». اهـ.

ومن أذكار الاعتراف بنعمة الله وفضله ـ وقلّ من يتنبه إليه، ولو تنبه لعله يقوله على وجه الغفلة ـ: ما يقال دبر كل صلاة، وهو ما رواه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دبر الصلاة إذا سلم، قبل أن يقوم، يرفع بذلك صوته:

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، [وَ]لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ، وَلَهُ الْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ»[٣].

ومنها، وهو معروف مشهور: ما في سيد الاستغفار، من حديث شداد بن أوسٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ [قال له:

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٢٧)، والترمذي (٣٥٦٦)، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٢) «الفوائد» (ص ١١٣-١١٤).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في «الدعاء» (٦٨١). وهو في «الصحيحة» (٣١٦٠). وأخرجه مسلم (٥٩٤) بنحوه، والزيادة له.

«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى] سَيِّدِ الْاسْتِغْفَارِ؟ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ[1] لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ». قال:

«وَمَنْ قَالَهَا مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ (وفي رواية: حِينَ يُمْسِي)، وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[2].

قال شيخ الإسلام[3]: «قوله: (أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي): اعتراف بإنعام الرب وذنب العبد، كما قال بعض السلف: إني أصبح بين نعمة تنزل من الله علي، وبين ذنب يصعد مني إلى الله، فأريد أن أُحْدِث للنعمة شكرًا، وللذنب استغفارًا». اهـ.

وماذا على العبد لو جعل قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ [النحل:١٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]، وما في معناهما منه على بال؟! فلو نسي تفاصيل نعم الله الكثيرة عليه، خصوصًا ما تقادم منها، أو لم ينسها لكنه ذكرها وهو غافل دون استحضار لقَدْرها، كان محتاجًا لدينه وشكره وثباته، بسبب ما تمليه عليه هذه الآيات من الاعتراف بفضل الله والشكر له تبارك وتعالى، وكان محتاجًا لحفظ الموجود منها ومنع زواله، وجلب المفقود وطلب دوامه.

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ:

---

(١) أبوء: أُقِرّ وأعترف. «منذري».

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٣١ و٥٨٤٨)، والترمذي (٣٣٩٣)، والزيادة له، والنسائي (٥٥٢٣)، وغيرهم.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٧٣/٨).

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ»[1].

الدعاء بالإعانة على الشكر

واسأل الله أن يعينك على شكره، واجتهد في ذلك، واجعل سؤالك هذا مما تَكْنِز وتدّخر إذا رأيت الناس يكتنزون الذهب والفضة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«أَتُحِبُّونَ أَنْ تَجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؟ قُولُوا: اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى شُكْرِكَ، وَذِكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[2].

وعن أبي عبد الرحمن الحُبُلِيِّ، عن الصُّنَابِحِيّ، عن معاذ بن جبل، أن رسول ﷺ أخذ بيده وقال:

«يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ». فقال: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ».

وأوصى بذلك معاذٌ الصُّنَابِحِيَّ، وأوصى به الصُّنَابِحِيُّ أبا عبد الرحمن[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يدعو يقول:

«رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي»[4].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٩٩) وغيره، وصحح إسناده الألباني في «الصحيحة» (رقم ٨٤٤).

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٢٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود (١٥١٠ و١٥١١)، والترمذي (٣٥٥١)، وقال: «حسن صحيح»، وغيرهما، وصححه الألباني.

وسيأتي بعد قليل حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، وفيه: «وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ».

قال ابن القيم[1]: «قاعدة جليلة. قد فكرت في هذا الأمر، فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده، نعم الطاعات ونعم اللذات، فترغب إليه أن يلهمك ويوزعك شكرها، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل:٥٣]. وقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]. وقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل:١١٤]. وكما أن تلك النعم منه، ومن مجرد فضله، فذكرها وشكرها لا يُنال إلا بتوفيقه، والذنوب من خِذلانه وتَخَلِّيه عن عبده، وتَخْلِيته بينه وبين نفسه، وإن لم يَكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له إلى كشفه عن نفسه، فإذًا هو مضطر إلى التضرع والابتهال إليه أن تُدفع عنه أسبابُها حتى لا تصدر منه، وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية فهو مضطر إلى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها، فلا ينفك العبد عن ضرورته إلى هذه الأصول الثلاثة، ولا فلاح له إلا بها: الشكر، وطلب العافية، والتوبة النصوح».

الدعاء بالثبات

ومن أعظم أسباب الثبات: أن يسأل العبد ربه عز وجل أن يثبت قلبه على دينه، ويُصَرِّفه على طاعته، وأن لا يزيغه بعد إذ هداه، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول:

«يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».

فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال:

---

(١) «الفوائد» (ص ١٩٨). ولكلامه بقية.

«نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»[1].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ». ثم قال رسول الله ﷺ:

«اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»[2].

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: ما آمَنُ على أحد بعد الذي سمعتُ من رسول الله ﷺ يقول:

«لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَسْرَعُ تَقَلُّبًا مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَانًا»[3].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يقول:

«يَا وَلِيَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، ثَبِّتْنِي (وفي رواية: مَسِّكْنِي) بِهِ حَتَّى أَلْقَاكَ»[4].

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«يَا شَدَّادُ بْنَ أَوْسٍ، إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدِ اكْتَنَزُوا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَاكْنِزْ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ»[5].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) وغيره.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي عاصم في «السنة» (١/٢٠٢)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٦١) و«الدعوات» (٢٥٤) وغيره، وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٨٢٣).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٧١٣٥) وغيره. وهو في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٢٨).

قال الصنعاني[1]: «(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ)، هو مصدر ثبت على الشيء إذا لازمه ودام عليه، (فِي الْأَمْرِ)، هو ما أمر الله به من فعل واجب أو ترك محرم؛ أي: أسألك الملازمة والدوام على فعل ما أمرت به وترك ما نهيت عنه».

وقال المناوي[2]: «(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ): الدوام على الدين، ولزوم الاستقامة عليه».

وقال الشوكاني[3]: «سأل النبي ﷺ ربه الثبات في الأمر، وهي صيغة عامة يندرج تحتها كل أمر من الأمور، وإذا وقع الثبات للإنسان في كل أموره أجراها على السداد والصواب، فلا يخشى من عاقبتها ولا تعود عليه بضرر، وسأله عزيمة الرشد، وهي الجد في الأمر، بحيث ينجز كل ما هو رشد من أموره، والرشد: بضم الراء المهملة وإسكان الشين المعجمة، هو الصلاح والفلاح والصواب، ثم سأله شكر نعمته وحسن عبادته، لأن شكر النعمة يوجب مزيدها واستمرارها على العبد، فلا تُنزع منه، وحسن العبادة يوجب الفوز بسعادة الدنيا والآخرة، وسأله اللسان الصادق لأن الصدق هو ملاك الخير كله، وسأله سلامة القلب، لأن من كان كذلك يسلم عن الحقد والغل والغدر والخيانة ونحو ذلك، وسأله أن يعيذه من شر ما يعلم سبحانه، وسأله من خير ما يعلم، لإحاطة علمه سبحانه بكل دقيقة وجليلة، بما يعلمه البشر وبما لا يعلمونه، فلا يبقى خير ولا شر إلا وهو داخل في ذلك، واستغفره مما يعلمه سبحانه، لأنه يعلم بكل ذنب مما يعلمه العبد ومما لا يعلمه، وما أوقع تتميم هذا الدعاء بهذه الجملة الواقعة موقع التأكيد لما قبلها! وهي قوله: (إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)».

---

(١) «التنوير» (١٤٠/٣).

(٢) «التيسير» (٢١٧/١).

(٣) «تحفة الذاكرين» (ص ٤٢٩-٤٣٠).

وقال[1]: «سؤال الثبات في الأمر من جوامع الكلم النبوية، لأن من يثبّته الله في أموره عُصِم عن الوقوع في الموبقات، ولم يصدر منه أمر على خلاف ما يرضاه الله تعالى». اهـ.

وأخبر جل وعز عن الراسخين في العلم أنهم يدعونه سبحانه قائلين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٨].

ومن ذلك: أن يستعيذ بالله في كل صلاة بعد التشهد من فتنة المحيا وفتنة الممات، وهو متضمن لسؤال الثبات على الدين وحسن الخاتمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»[2].

ولْيعلم العبد أنه كما لا يستقيم في الدنيا على الصراط المستقيم ولا تزكو نفسه إلا بتوفيق الله تعالى وفضله ورحمته، فإنه كذلك لن يدخل الجنة بعمله مهما كان، إلا أن يتغمده الله تعالى بفضل منه ورحمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»[3].

سؤال الهداية

ومن أهم الأدعية، بل هو أعظمها وأوجبها: دعاء العبد في صلاته قائلًا: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

---

(١) «نيل الأوطار» (٣٤١/٢).

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٣) متفق عليه.

قال ابن جرير: «والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي، أعني: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، أن يكون معنيًّا به: وَفِقْنا للثبات على ما ارتضيته ووَفَّقْت له مَنْ أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم، لأن مَنْ وُفِّق لما وُفِّق له مَنْ أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء فقد وُفِّق للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمر الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهج النبي ﷺ، ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وكل عبد لله صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم».

وقال ابن القيم بعد كلام(١): «ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، فليس شيء أحوج منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع له منها».

وقال(٢): «إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد، وهما الرياء والكبر، فدواء الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ودواء الكبر بـ ﴿ إِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾.

وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ تدفع الكبرياء.

فإذا عُوفي من مرض الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ومن مرض الكبرياء والعُجْب بـ ﴿ إِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، عُوفي من أمراضه وأسقامه، ورَفَل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعَم عليهم، ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق

---

(١) «الجواب الكافي» (ص ١٢٢).

(٢) «مدارج السالكين» (٧٨/١).

وعدلوا عنه، و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحقَّ لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يُستشفى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله وكلامه، وفهمت عنه فهما خاصًّا اختصها به، من معنى هذه السورة».

وله:

فسَلِ الهدايةَ مَنْ أَزِمَّةُ أمرنا ... بيديه مسألةَ الذليل العاني

وسَلِ العياذَ من اثنتين هما اللتا ... ن بهَلْكِ هذا الخلق كافلتانِ

شرُّ النفوس وسيِّئُ الأعمال ما ... واللهِ أعظمُ منهما شرانِ

ولقد أتى هذا التعوذُ منهما ... في خُطبة المبعوث بالقرآنِ

لو كان يدري العبد أن مُصابهُ ... في هذه الدنيا هو الشرانِ

جعل التعوذ منهما دَيْدانَهُ ... حتى تراه داخل الأكفانِ

وسَلِ العياذ من التكبر والهوى ... فهما لكل الشر جامعتانِ

وهما يَصُدانِ الفتى عن كل طُرْ ... ق الخير إذ في قلبه يَلجانِ

○○○○○

الذكر

ومن أعظم أسباب الثبات على الدين: إدامة ذكر الله تعالى.

قال عز وجل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

فالأسوة الحسنة والاقتداء بالنبي الكريم ﷺ إنما يوفَّق لها من كان هذا وصفه، وكان من أهل الذكر الكثير لله تعالى.

وعن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه، أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به. قال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ»(١).

قال ابن القيم(٢): «فدله الناصح ﷺ على شيء يبعثه على شرائع الإسلام والحرص عليها والاستكثار منها، فإنه إذا اتخذ ذكر الله شعاره أحبه وأحب ما يحب، فلا شيء أحب إليه من التقرب بشرائع الإسلام، فدله ﷺ على ما يتمكن به من شرائع الإسلام وتسهل به عليه، وهو ذكر الله عز وجل.

يوضحه: أن ذكر الله عز وجل من أكبر العون على طاعته، فإنه يحببها إلى العبد، ويسهلها عليه، ويلذذها له، ويجعل قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها، بحيث لا يجد لها من الكُلْفة والمشقة والثِقَل ما يجد الغافل، والتجربة شاهدة بذلك.

يوضحه: أن ذكر الله عز و جل يسهل الصعب وييسر العسير ويخفف المشاق فما ذكر الله عز و جل على صعب إلا هان ولا على عسير إلا تيسر ولا مشقة إلا خفت ولا شدة إلا زالت ولا كربة إلا انفرجت فذكر الله تعالى هو الفرج بعد الشدة واليسر بعد العسر والفرج بعد الغم والهم».

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «الوابل الصيب» (ص ٧٦-٧٧).

وأيضًا، فإن الله عز وجل يذكر من يذكره، وهو معه إذا ذكره، ومن كان هذا حاله حفظه الله عز وجل وثبّته ونصره، قال الله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة:١٥٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» الحديث(١).

وعنه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»(٢).

قال ابن القيم(٣): «وهذه المعية معية خاصة، غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق». اهـ.

وأيضًا، فإن من فوائد الذكر العظيمة: أنه يوجب الاستغفار، ويَحل عقدة الإصرار، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٥].

فقول تعالى: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾، يدل على أن الاستغفار جاء عقب الذكر ونتيجة له، فالذكر هو الذي أوجب لهم التوبة وترك الذنب، وهو بلا شك الذكر المتضمن التعظيم لله عز وجل والخوف منه والرجاء له سبحانه.

والاستغفار المذكور في الآية لا شك أنه الاستغفار التام، المتضمن للتوبة

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٧٩٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) «الوابل الصيب» (ص ٨٣).

وترك الذنب، يؤكده قوله تعالى بعده: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

والذكر أعظم ما يحفظ النفس، ويقيها من شرور الشيطان، بل لا يحرز العبد نفسه من الشيطان إلا بذكر الله عز وجل، فعن الحارث الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا». الحديث[1]. وفيه:

«وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ».

قال ابن القيم[2]: «وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، و(الخناس): الذي إذا ذَكَر العبدُ اللهَ انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله تعالى التقم القلب، وألقى إليه الوساوس، التي هي مبادئ الشر كله، فما أحرز العبدُ نفسَه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل».

وقال[3]: «فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة، لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لَهِجًا بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غَفَل وثب عليه وافترسه، وإذا ذَكَر اللهَ تعالى انخنس عدو الله تعالى وتصاغر وانقمع، حتى يكون كالوصع[4] وكالذباب، ولهذا سُمِّي

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٦٣ و٢٨٦٤)، وصححه الألباني.

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/٢٧٠).

(٣) «الوابل الصيب» (ص ٤٦).

(٤) الوصع: بفتح الصاد وسكونها: طير أصغر من العصفور.

(الوسواس الخناس)؛ أي: يوسوس في الصدور، فإذا ذُكِر الله تعالى خَنَس؛ أي: كَفّ وانقبض».

وقال[1]: «وبالذكر يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي». اهـ.

واحرص على حضور قلبك في الذكر وتفهّم معانيه، فإن حضور القلب في العبادة من ذكر وغيره هو روحها ـ كما تقدمت الإشارة إليه ـ، فكما أنه لا حياة للجسد بلا روح فكذلك كل عبادة لا حضور فيها فإنها ميتة لا روح فيها.

وحضور القلب في الذكر يُقصد به: تدبر الذاكر معنى ما يجريه على لسانه، وجمع قلبه عليه، مع تنبهه لعظمة الله تعالى وجلاله، واستشعاره لمراقبته.

قال النووي[2]: «المراد من الذكر حضور القلب، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر، فيحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر، ويتعقل معناه، فالتدبر في الذكر مطلوب كما هو مطلوب في القراءة، لاشتراكهما في المعنى المقصود». اهـ.

وأهم الأذكار وأشهرها وأعظمها هو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وما اشتمل عليها وما تركب منها.

وأما ما ورد في فضائلها ومنافعها فإنه يصعب استيعابه، فمنه: أن الله عز وجل قد اصطفاها على سائر الكلام، وكانت أحبه إليه، وأحب إلى رسوله ﷺ مما طلعت عليه الشمس، وهي الباقيات الصالحات، وغراس الجنات، وهي تجزئ عن

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٣٩٦).

(٢) «الأذكار» (ص ٩).

القرآن لمن لا يستطيع الأخذ منه.

ومن أراد الاطلاع على جملة مباركة من فضائلها، فقد أودعتها في كتابي «الأذكار المضاعفة».

ومن ذلك: أن الدعاء بعد ذكرها مستجاب، فعن أنس رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، عَلِّمْني خيرًا، فأخذ النبي ﷺ بيده فقال: «قُلْ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ».

قال: فعَقَدَ الأعرابي على يده ومضى، فتفكر ثم رجع، فتبسم النبي ﷺ، قال: «تَفَكَّرَ الْبَائِسُ». فجاء فقال: يا رسول الله، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هذا لله، فما لي؟ فقال له ﷺ:

«يَا أَعْرَابِيُّ، إِذَا قُلْتَ: سُبْحَانَ اللهِ، قَالَ اللهُ: صَدَقْتَ. وَإِذَا قُلْتَ: الْحَمْدُ للهِ، قَالَ اللهُ: صَدَقْتَ. وَإِذَا قُلْتَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ اللهُ: صَدَقْتَ. وَإِذَا قُلْتَ: اللهُ أَكْبَرُ. قَالَ اللهُ: صَدَقْتَ.

وَإِذَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، قَالَ اللهُ: فَعَلْتُ. وَإِذَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي، قَالَ اللهُ: فَعَلْتُ. وَإِذَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي، قَالَ اللهُ: قَدْ فَعَلْتُ». قال: فعَقَدَ الأعرابي على سبعٍ في يده، ثم وَلَّى(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن أُمَّ سُلَيْمٍ، غَدَتْ على النبي ﷺ، فقالت: عَلِّمْنِي كلمات أقولهن في صلاتي. فقال:

«كَبِّرِي اللهَ عَشْرًا، وَسَبِّحِي اللهَ عَشْرًا، وَاحْمَدِيهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلِي مَا شِئْتِ يَقُولُ(٢): نَعَمْ نَعَمْ»(٣).

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٠). وهو في «الصحيحة» (٣٣٣٦).

(٢) وعند النسائي (١٢٩٩): «يَقُلْ».

(٣) أخرجه الترمذي (٤٨١) وغيره، وحسن الألباني.

ومن ذلك: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»(١).

وعن أنسِ بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ مر بشجرة يابسة الورق، فضربها بعصاه فتناثر الورق، فقال:

«إِنَّ الحَمْدُ للهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لَتُسَاقِطُ مِنْ ذُنُوبِ العَبْدِ كَمَا تَسَاقَطَ وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا عَلَى الْأَرْضِ أَحَدٌ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، إِلَّا كُفِّرَتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»(٣).

ومن تساقطت ذنوبه، وكُفِّرت خطايا، كان ذلك من أسباب ثباته على الدين، فإن الذنوب والخطايا ليس كمثلها شيء في سدّ أبواب الخيرات، والتعويق عن الطاعات، والتثبيط عن الصالحات.

قال ابن القيم(٤): «قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة، وكسف البال، تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء، والإحراق عن النار، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٥) وغيره.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٣٣) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٦٠) وغيره، وحسنه الألباني.

(٤) «الفوائد» (ص ١٤٧).

لا حول ولا قوة إلا بالله

ومن أعظم الأذكار في تحصيل الثبات على الدين والاستعانة على ما يجده العبد من مشقة في فعل بعض الطاعات وترك المعاصي: لا حول ولا قوة إلا بالله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ»(١).

وعنه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«أَلَا أُعَلِّمُكَ (أو قال: أَلَا أَدُلُّكَ) عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ؟ تَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ»(٢).

قال النووي(٣): «قوله ﷺ: لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة، قال العلماء: سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى، واعتراف بالإذعان له، وأنه لا صانع غيره، ولا راد لأمره، وأن العبد لا يملك شيئًا من الأمر، ومعنى الكنز هنا: أنه ثواب مُدَّخر في الجنة، وهو ثواب نفيس، كما أن الكنز أنفس أموالكم(٤)».

وقال ابن القيم(٥): «لما كان الكنز هو المال النفيس المجتمع الذي يخفى على أكثر الناس، وكان هذا شأن هذه الكلمة، كانت كنزًا من كنوز الجنة، فأُوتيها النبي ﷺ من كنز تحت العرش، وكان قائلها أسلم واستسلم لمن أَزِمَّة الأمور بيديه، وفوض أمره إليه».

وعن قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما، أن أباه دفعه إلى النبي ﷺ يخدمه، قال: فمر بي النبي ﷺ وقد صليت، فضربني برجله، وقال:

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٣٣). وهو في «الصحيحة» (٤/٣٣).

(٢) أخرجه الحاكم (١/٢١). وهو في «صحيح الجامع» (٢٦١١).

(٣) «شرح صحيح مسلم» (١٧/٢٦).

(٤) وقد صرح الحديث المتقدم بأن النبي ﷺ أُوتيها من تحت العرش من كنز الجنة، فينبغي حمله على ظاهره.

(٥) «شفاء العليل» (ص ١١٢).

«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ؟» قلت: بلى؟ قال: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[1].

وقد كثرت الأحاديث في فضلها، والأمر بها، والإكثار من قولها، وهي مشهورة مبثوثة في كتب الأذكار.

وقال ابن القيم[2]: «هذه الكلمة لها تأثير عجيب في معالجة الأشغال الصعبة، وتحمُّل المشاقِّ، والدخول على الملوك، ومَنْ يُخاف، وركوب الأهوال».

وقال شيخ الإسلام[3]: «بها تُحمل الأثقال، وتُكابَد الأهوال، ويُنال رفيع الأحوال».

قلت: فلا حول ولا قوة إلا بالله هي كلمة الاستعانة العظمى، وهي من أنسب الأذكار في موضوعنا الذي نتكلم فيه، فلْيلزمها الذاكر ما استطاع، ولْيكثر منها بقدر الطاقة، ولْيجعلها هِجِّيراه وديدنه، خصوصًا إذا ادلهمت الخطوب، واشتدت الكروب، وكثرت الفتن والحروب، وانتشر الباطل، وصار له أعوانًا من أهل الإسلام، وأُريد للمسلم أن يتخلى عن دينه، ويتنازل عن إيمانه، وفُتِن على ذلك، نسأل الله العافية والسلامة.

وإياك والغفلة! فما أُتِي مَنْ أُتِي، ولا نكص ولا تراجع ولا تكاسل، إلا من قِبَلها، وقد حذر الله تبارك وتعالى من الغفلة تحذيرًا شديدًا، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون:٩].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ ﴾ [الحشر:١٩].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٨١)، وصححه الألباني.

(٢) «الوابل الصيب» (ص ٩٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/١٣٧).

قال ابن القيم[1]: «فلما نسوا ذكره والثناء عليه وتحميده وتمجيده نسيهم من رحمته، وأنساهم مصالح نفوسهم، فلم يعرفوها ولم يطلبوها، بل تركوها مهملة معطلة مع نقصها وعيوبها». اهـ.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦].

قوله تعالى: (يعش)، قال ابن كثير: «أي: يتعامى، ويتغافل، ويعرض».

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥].

قال ابن القيم: «إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلًا ولأيامك وأنفاسك أمدًا، ومن كل ما سواه بد ولا بذلك منه».

الصلاة

وهي أعظم الذكر، وهي مشتملة على جميع أنواعه:

قال الله تبارك وسبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣].

وقال سبحانه: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥].

قال ابن القيم[2]: «الصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا

(١) «الصواعق» (١٤٨١/٤).

(٢) «زاد المعاد» (٢٠٩/٤).

والآخرة، ودفع مفاسد الدنيا والآخرة». اهـ.

وإنما هي الصلاة بالخشوع، قال الله تبارك اسمه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢]. الآيات.

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

فإن الخشوع في الصلاة هو روحها وحياتها ونورها ولُبّها، وهو ـ بكلمة مختصرة جامعة مضبوطة ـ خشوعان:

خشوع الجوارح: بأداء أركان الصلاة العملية من ركوع وسجود وغيرها بالطُّمَأنينة، وإعطائها حقها ووقتها من السكون والاستواء وإقامة الصُّلْب، والإتيان بالهيئات الواردة في القيام والركوع والسجود والجلوس والتنقل بينها، وترك الحركة والعبث والالتفات وسائر ما يخل بالسكينة والطُّمَأنينة والوقار.

وخشوع القلب: بالحرص على أخذ حقه من القنوت لله والتعظيم والذل والخضوع، بحسب أعمال الصلاة من قيام وركوع وسجود وغيرها وما يناسبها من ذلك، وبحضور القلب ورقته في التلاوة والذكر، وتدبر ما يقال في الصلاة كلها.

وقد فصلت ما يعين عليه في كتابي «معاتبة النفس» في فصل «الخشوع في الصلاة»، فليرجع إليه من شاء.

فهذه هي الصلاة التي تنفع صاحبها، لا صلاة لا يطمئن المصلي فيها، أو لا يحرك لسانه بالتلاوة والأذكار، أو لا يحسن ركوعها ولا سجودها!

وكم رأينا من هذه الأصناف! وكم رأينا ممن يرفع إحدى قدميه في السجود، فيضعها على الأخرى!! وبعضهم قد مضى من عمره أكثر من نصف قرن! ولا يزال يسجد كما يسجد ابن الخمس سنوات!!

فصلاة مثل هذه هي بمثابة لا صلاة، ولا تنفع صاحبها، ولا تأمره ولا تنهاه، ولا يحفظه الله تعالى بها ولا يثبّته ولا يثيبه[1]!! فإنه داخل في قول النبي ﷺ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»[2]، ولا أخشى أن أقول: إنه داخل كذلك في قول الله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤-٥].

تلاوة القرآن

ومن أعظم أسباب الثبات، بل هو أصل أصولها، والجامع لها جميعها: تلاوة كتاب الله عز وجل.

قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢].

وقال سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أوصني. قال: «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ الْأَمْرِ كُلِّهِ». قلت: يا رسول الله، زدني. قال: «عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ، وَذُخْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ»[3].

ومن حصل له النور قوي قلبه وثبت على الحق، لأن في النور هداية ووقاية.

واجعل لك نصيبًا من السماع، فما أعظم أثره على القلوب! وما أقرب

(١) إلا أن يشاء سبحانه.

(٢) بعض حديث، متفق عليه، وهو معروف مشهور.

(٣) بعض حديث، أخرجه ابن حبان (٣٦١) وغيره، وصححه الألباني.

فائدته! وما أسرع عائدته! وما أشد الحاجة إليه في هذا الزمان المزدحم بالأشغال!

قال أرحم الراحمين سبحانه: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

قال الليث: يقال: ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن، لقول الله جل ذكره: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. و«لعل» من الله سبحانه وتعالى واجبة(١).

واختر من القراء من تتأثر لقراءته نفسك، ويخشع قلبك، وتدمع عينك.

وأنصت للقرآن إذا قرئ، وألق له سمعك، وأشهد له قلبك، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

ووصف سبحانه وتعالى حال أنبيائه عليهم الصلاة والسلام إذا تليت عليهم آياته وأثرَها عليهم فقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم:٥٨].

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ». قال: فقلت: يا رسول الله، أَقْرَأُ عليك، وعليك أُنزل؟! قال: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي».

فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١]. رفعت رأسي، أو غَمَزَني رَجُلٌ إلى جنبي، فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل(٢).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۩ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۩ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ

---

(١) «لمحات الأنوار» (١/١٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١/٩).

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ {الإسراء:١٠٧-١٠٩}.

وقال سبحانه في حق من هدى من القسيسين والرهبان: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣].

وقال سبحانه وتعالى في حق الجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٠]. الآيات.

وقال سبحانه حاكيًا عنهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢].

الرشد: الحق والصواب والهدى، ويدخل فيه الإصابة في مصالح الدنيا والدين.

فهذا يا عبد الله هو السماع الحق، سماع القرآن، لا سماع الموسيقى والألحان، وسماع السور والآيات، لا سماع الأناشيد وما يسمى بالشيلات.

قال ابن القيم(١): «هذا السماع حاد يحدو القلوب، إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح، إلى ديار الأفراح، ومحرك يثير ساكن العزمات، إلى أعلى المقامات، وأرفع الدرجات، ومناد ينادي للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح، من قِبل فالق الإصباح: حي على الفلاح، حي على الفلاح».

تدبر القرآن

وإنما تكون التلاوة نافعة على وجه التمام والكمال إذا كانت بالتدبر، فهي التي تعين على الطاعة، وتزجر عن المعصية، وتهدي إلى الحق، وتحفظ من

(١) «مدارج السالكين» (٤٨١/١-٤٨٢).

الضلال، وتثبت على الدين، وتورث اليقين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

قال ابن سعدي: «﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾؛ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجلَّ كتاب طرق العالم.

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة تدرك بركته وخيره».

وقال الشنقيطي: «أي: يتفهموها ويتعقلوها ويُمْعِنوا النظر فيها، حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهدى».

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

وعن أبي وائل قال: جاء رجل يقال له نهيك بن سنان إلى عبد الله[(١)]، فقال: يا أبا عبد الرحمن، كيف تقرأ هذا الحرف؟ ألِفًا تجده أم ياءً؟ ﴿مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ [محمد:١٥]، أو «من ماء غير ياسن»؟ قال: فقال عبد الله: وكلَّ القرآن قد أحصيتَ غير هذا؟ قال: إني لأقرأ المُفَصّل في ركعة، فقال عبد الله: هَذًّا كهَذِّ الشِّعر، إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرَسَخَ فيه نَفَعَ. الحديث[(٢)].

---

(١) يعني: ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

قال ابن القيم[1]: «ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته، من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طُرُقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتَتُلُّ[2] في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتُثَبِّتُ قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه وتوطّد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار، وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق، واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرِّفه الربَّ المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرِّفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها، ومشاهدتها ومطالعتها:

فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقًّا، والباطل باطلًا، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدى والضلال، والغَي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحًا وبهجة وسرورًا، فيصير في شأن والناس في شأن آخر.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٤٥١-٤٥٣).

(٢) أي: تضع.

فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، وعلى الإيمان بالرسل، وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم، وحقوق مرسلهم، وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جُعِلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقر في رحم أمه إلى يوم يوافي ربه ويقدم عليه، وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه، من دار النعيم المطلق التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح، وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه، وعلى تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته ووَنَى في سيره: تقدم الركب وفاتك الدليل، فاللَّحاق اللَّحاق، والرحيل الرحيل. وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره وتفهمه أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم

والفوائد».

وقال[1]: «لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فاذا قرأه بتفكر حتى مر بآية هو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها، ولو مئة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، و أدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن». اهـ.

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ الآية، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين جل وعلا، يهدي للتي هي أقوم؛ أي: الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب، فـ «التي» نعت لموصوف محذوف، على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

وما من المنعوت والنعت عُقِل ... يجوز حذفه وفي النعت يَقِل

وقال الزجاج والكلبي والفراء: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله.

وهذه الآية الكريمة أجملَ اللهُ جل وعلا فيها جميعَ ما في القرآن من

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٥٣٥ – أبو زيد).

الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة».

هذا، وما فاتنا ذكره من أسباب الثبات، أو تركناه طلبًا للاختصار ـ كما ذكرنا في المقدمة ـ، فإنك ستقع عليه أثناء تلاوتك، إضافة إلى أن التلاوة المجردة ذاتها فيها من الحسنات الكثيرة ما يكون سببًا لثباتك.

الإكثار من النوافل

ومن أسباب الثبات، وهو سبب خاصّ مميّز، ما أن يُذكر ويُخاض فيه، حتى تثور شجون العابدين، وتتحرك همم السالكين، وتنبعث طاقات المجتهدين، وهو خصِّيصة أولياء الله المحبين، وشعار الأبرار منهم والمقربين، ألا وهو: الإكثار من النوافل بعد الفرائض، من صلاة وصيام وصدقة وذكر وجهاد وغيرها.

فإذا أكثر العبد من التقرب إلى الله تعالى بالنوافل زيادة منه على ما فرضه عليه، دل ذلك على محبته لله تعالى، ورغبته في عبادته والتقرب إليه، فيثيبه الله تعالى بمحبته له بحسب تقرباته، وإذا أحبه الله تعالى فقد نال أقصى مراد، وأعظم مطلب، عند ذلك يوفقه سبحانه ويسدده ويثبته، بل والأمر أعظم من ذلك، وفوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي

لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[١].

قال ابن رجب[٢]: «المراد بهذا الكلام: أن من اجتهد بالتقرب إلى الله بالفرائض ثم بالنوافل قربه إليه، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهَدًا له بعين البصيرة.

ولا يزال هذا الذي في قلوب المحبين المقربين يقوى حتى تمتلئ قلوبهم به، فلا يبقى في قلوبهم غيره، ولا تستطيع جوارحهم أن تنبعث إلا بموافقة ما في قلوبهم، ومن كان حاله هذا قيل فيه: ما بقي في قلبه إلا الله، والمراد معرفته ومحبته وذكره.

فمتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى محا ذلك من القلب كل ما سواه، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه، ولا إرادة إلا لما يريده منه مولاه، فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره، ولا يتحرك إلا بأمره، فإنْ نطق نطق بالله، وإن سمع سمع به، وإن نظر نظر به، وإن بطش بطش به، فهذا هو المراد بقوله: «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»».

قال: «فإذا تحقق القلب بالتوحيد التام لم يبق فيه محبة لغير ما يحبه الله، ولا كراهة لغير ما يكرهه الله، ومن كان كذلك لم تنبعث جوارحه إلا بطاعة الله، وإنما تنشأ الذنوب من محبة ما يكرهه الله، أو كراهة ما يحبه الله، وذلك

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) وغيره. قال شيخ الإسلام: «وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء». «مجموع الفتاوى» (١٢٩/١٨).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢٤٥/٢-٣٤٨).

ينشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله وخشيته، وذلك يقدح في كمال التوحيد الواجب، فيقع العبد بسبب ذلك في التفريط في بعض الواجبات، وارتكاب بعض المحظورات، فإن من تحقق قلبه بتوحيد الله فلا يبقى له هم إلا في الله وفيما يرضيه به». اهـ.

وقال سبحانه وتعالى واصفًا حال من ذكرنا: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٤].

وقال سبحانه: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦-١٧].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۞ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۞ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ {الذاريات:١٦-١٩}.

وقال عن سادتهم؛ رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح:٢٩].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾: وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله، عز وجل، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم، وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ

ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ [التوبة:٧٢]».

وقال ابن سعدي: «﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾؛ أي: وصفُهم كثرة الصلاة، التي أجل أركانها الركوع والسجود. ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ بتلك العبادة ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾؛ أي: هذا مقصودهم: بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه. ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾؛ أي: قد أثرت العبادة من كثرتها وحسنها في وجوههم حتى استنارت، لما استنارت بالصلاة بواطنهم استنارت بالجلال ظواهرهم».

الاستعانة بالغَدْوة والرَّوْحة

ومن أسباب الثبات: الاستعانة عليه بالصلاة والذكر في الصباح والمساء وفي ساعات الليل.

قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه:١٣٠].

قال ابن سعدي: «أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوض عن ذلك ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه، في هذه الأوقات الفاضلة: قبل طلوع الشمس وغروبها، وفي أطراف النهار: أوله وآخره، عموم بعد خصوص، وأوقات الليل وساعاته، لعلك إن فعلت ذلك ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، وليطمئن قلبك، وتقر عينك بعبادة ربك، وتتسلى بها عن أذيتهم، فيخف حينئذ عليك الصبر». اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري وغيره.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا»(١).

ويدخل في الغَدْوة صلاة الفجر وما يتبعها من السنة الراتبة والأذكار التي تقال دبر الصلاة، وفي الرَّوْحة صلاة العصر وما يتبعها كذلك، وما يلتحق بهما من أذكار الصباح والمساء، والمقصود بالدُّلْجة قيام الليل، فيأتي منه ولو ركعتين من آخر الليل.

قال المناوي(٢): «(فسددوا)، الزموا السداد، وهو الصواب بلا إفراط ولا تفريط، (وقاربوا)؛ أي: إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه، (وأبشروا) بالثواب على العمل الدائم وإن قل، (واستعينوا بالغدوة والروحة)؛ أي استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في وقت النشاط».

ترك التنطع

ومن أسباب الثبات: ترك التنطع في الدين، وسلوك طريق الاعتدال والاقتصاد، لا إفراط ولا تفريط، كما في الحديث المتقدم.

وقوله ﷺ: (ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه)، قال الحافظ(٣): «المشادّة: بالتشديد: المغالبة، يقال شادّه يشادّه مشادّة إذا قاواه، والمعنى: لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيُغلب، قال بن المنير: في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في

(١) بعض حديث، متفق عليه، واللفظ للبخاري.

(٢) «التيسير» (٢٨١/١).

(٣) «الفتح» (٩٤/١).

الدين ينقطع[1]. وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة، فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل، فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهَا سَدَّدَ وَقَارَبَ فَارْجُوهُ، وَإِنْ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فَلَا تَعُدُّوهُ»[2].

قال القاري[3]: «المعنى: أن العابد يبالغ في العبادة في أول أمره، وكل مبالِغ يفتر وتسكن حِدّته ومبالغته في أمره، ولو بعد حين، (فإنْ صاحبها سدد)؛ أي: قصد السداد والاستقامة، أو اقتصد في أمر على مداومته، لكن لا تقطعه الطاعة والعبادة، (وقارب)؛ أي: دنا من التوسيط، واحترز من الإفراط والتفريط (فارجوه)؛ أي: أن يكون من الفائزين، فإن من سلك الطريق المتوسط يقدر على مداومته، لكن لا تقطعوا له، فإن الله هو الذي يتولى السرائر (وإن أُشير إليه بالأصابع)؛ أي: وإن اجتهد وبالغ في العمل ليصير مشهورًا بالزهد والعبادة، وصار مشهورًا ومشارًا إليه فيها (فلا تعدوه)؛ أي: شيئًا ولا تعتقدوه صالحًا، لكونه من المرائين، حيث جعل أوقات فترته عبادة، وهو لا يُتصوَّر إلا فيما يتعلق به رياء وسمعة، وأيضًا إذا أقبل الناس عليه بوجوههم ربما زاد في العبادة وحصل له عُجب وغرور، فصار من الهالكين، إلا أن يتداركه الله بفضله، وجَعْلِه من المخلصين.

---

(١) هذا حق مطابق للواقع، وقد لمسته بنفسي، فكل مَنْ رأيتُهم من المتنطعين انقطعوا وتراجعوا وضعُفوا! بل إن كثيرًا منهم غيّروا وبدلوا! هداهم الله، ونسأله تعالى السلامة.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥٣) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) «المرقاة» (٩/١٨٤-١٨٥).

وتوضيحه: أن الإنسان يشتغل بالأشياء على حرص شديد ومبالغة عظيمة في أول الأمر، ثم إن تلك الشِرَة يتبعها فترة، فإن كان مقتصدًا محترزًا عن جانبَي الإفراط والتفريط وسالكًا الطريق المستقيم، فارجوا كونه من الفائزين الكاملين، وإن سلك طريق الإفراط حتى يشار إليه بالأصابع فلا تلتفتوا إليه ولا تعوِّلوا عليه، فإنه ربما يكون من الهالكين، لكن لا تجزموا بأنه من الخاسرين، ولا تعدّوه منهم، لكن لا ترجوه كما رجوتم المقتصد، إذ قد يعصم الله في صورة الإفراط والشهرة، كما أنه قد يعفو عن صاحب التفريط وراعي التقصير في العبادة».

وقال ابن القيم(١): « فإن قلت: كل مجد في طلب شيء لا بد أن يعرض له وقفة وفتور، ثم ينهض إلى طلبه.

قلت: لا بد من ذلك، ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليجم نفسه ويُعِدّها للسير، فهذا وقفته سير ولا تضره الوقفة، فإن لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، وإما أن يقف لداعٍ دعاه من ورائه، وجاذبٍ جذبه من خلفه، فإن أجابه أخّره ولا بد، فإنْ تداركه الله برحمته، وأطلعه على سَبق الركب له وعلى تأخره نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع، ووثب وجمز واشتد سعيًا ليلحق الركب، وإن استمر مع داعي التأخر وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة، وإجابة داعي الهوى، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دركًا، وهو بمنزلة النكسة الشديدة عَقِيبَ الإبلال من المرض، فإنها أخطر منه وأصعب.

وبالجملة، فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه وتخليصه، وإلا فهو في تأخر إلى الممات، راجعُ القهقرى، ناكصٌ على عَقِبَيْه، أو مُوَلٍ ظهرَه، ولا قوة إلا بالله، والمعصوم من عصمه الله».

وقال(٢): «فتَخَلُّل الفترات للسالكين أمر لازم لا بد منه، فمن كانت فترته

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٢٧٨-٢٧٩).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/١٢٢).

إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تدخله في محرم، رُجِيَ له أن يعود خيرًا مما كان.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه: إن لهذه القلوب إقبالًا وإدبارًا، فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل، وإن أدبرت فألزموها الفرائض». اهـ

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: كنت أصوم الدهر، وأقرأ القرآن كل ليلة. قال: فإما ذُكِرْتُ للنبي ﷺ، وإما أَرسل إلي فأَتيتُه، فقال لي:

«أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ؟» فقلت: بلى، يا نبي الله، ولم أُرِدْ بذلك إلا الخير.

قال: «فَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ». قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا». قال: «فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، فَإِنَّهُ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ».

قال قلت: يا نبي الله، وما صوم داود؟

قال: «كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا» قال: «وَاقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ». قال قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عِشْرِينَ». قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرٍ». قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ، وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا».

قال: فشَدَّدْتُ، فَشُدِّدَ عليَّ. قال: وقال لي النبي ﷺ:

«إِنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّكَ يَطُولُ بِكَ عُمْرٌ».

قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ، فلما كبِرت ودِدت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ[1].

وعن عَون بن أبي جُحَيْفَةَ، عن أبيه قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مُتَبَذِّلَةً، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعامًا، فقال: كل فإني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نم. فنام. ثم ذهب يقوم، فقال: نم. فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن. قال: فصليا. فقال له سلمان: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ سَلْمَانُ»[2].

وإنما ذكرت هذين الحديثين من باب تحذير المتأخرين من الوقوع في التشديد على النفس في العبادة، وإلا فإن سلمان وابن عمرو رضي الله عنهما ليسوا من المتنطعين، وما قصدا إلا الخير، والوصول إلى الكامل أو الأكمل من العبادة، ومع ذلك نُهُوا عن فعلهم وما اختاروه لأنفسهم، خشية الوقوع فيما لا تحمد عقباه.

قال شيخ الإسلام[3]: «قال الحسن البصري لما ذكر الحديث: «لِكُلِّ عَامِلٍ شِرَّةً وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَإِنْ صَاحِبُهَا سَدَّدَ وَقَارَبَ فَارْجُوهُ، وَإِنْ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فَلَا تَعُدُّوهُ». فقالوا: أنت إذا مررت في السوق أشار إليك الناس. فقال: إنه لم يَعْنِ هذا وإنما أراد المبتدع في دينه والفاجر في دنياه». اهـ.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الاقتصاد في السنة أحسن من الاجتهاد

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري وغيره.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/٦٧٢-٦٧٣).

في البدعة[1].

هذا، والتنطع والتكلف والتشدد والغلو في غير محله مذموم في كل شيء، عبادة كان أو معاملة أو غير ذلك، وهو سبب للهلاك، لأنه ينافي الشريعة والدين والحنيفية السَّمحة، فعن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ». قالها ثلاثًا[2].

قال النووي: «(هلك المتنطعون)؛ أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم».

○○○○○

---

(١) أخرجه الحاكم (١٨٤/١) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (رقم ٤١).

(٢) أخرجه مسلم وغيره.

مصاحبة الأخيار

ومن أهم أهم أسباب الثبات على الحق، والاستعانة على الصلاح، والاهتمام بأمر الدين وأمر الآخرة، دون وحشة ولا ملل، ولا ضجر ولا كسل: مصاحبة المؤمنين، ومخاللة المتقين، ومجالسة الصالحين، والاستفادة من العلماء الربانيين، ومتابعة مجالسهم الإيمانية، وحلَقاتهم العلمية، ودروسهم الوعظية، واجتناب صحبة الفاسقين والفاسدين والبطالين، وترك مجالستهم، وهذا السبب هو الأشهر عند أهل النصح والإرشاد.

قال الله عز وجل: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف:٢٨].

قال ابن سعدي: «يأمر تعالى نبيه محمدًا ﷺ ـ وغيره أسوته في الأوامر والنواهي ـ أن يصبر نفسه مع المؤمنين العبّاد المنيبين ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾؛ أي: أول النهار وآخره، يريدون بذلك وجه الله، فوصفَهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم، وإن كانوا فقراء، فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى. ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: لا تجاوزْهم بصرَك وترفع عنهم نظرك، ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر القلب، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويُقْبِل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية

والندامة السرمدية، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾، غفل عن الله فعاقبه بأن أغفله عن ذكره. ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾؛ أي: صار تبعًا لهواه، حيث ما اشتهت نفسه فعله وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]. الآية. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ﴾؛ أي: مصالح دينه ودنياه، ﴿فُرُطًا﴾؛ أي: ضائعة معطلة، فهذا قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به.

ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع ويكون إمامًا للناس مَنِ امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربه فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما مَنّ الله به عليه، فحقيق بذلك أن يُتبع ويُجعل إمامًا، والصبر المذكور في هذه الآية هو الصبر على طاعة الله الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه تتم باقي الأقسام[1].

وفي الآية استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله دل ذلك على أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به ويرغِّب فيه». اهـ.

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ[2]، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»[3].

---

(١) يعني: الصبر عن المعصية، والصبر على البلاء.

(٢) أي: يهبك ويعطيك.

(٣) متفق عليه.

قال النووي[١]: «فيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فجره وبطالته، ونحو ذلك من الأنواع المذمومة».

وقال المناوي[٢]: «قال الراغب: نبه بهذا الحديث على أن حق الإنسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار ومجالستهم، فهي قد تجعل الشرير خيرًا، كما أن صحبة الأشرار قد تجعل الخير شريرًا.

ومن المشاهد أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة، فما الظن بالنفوس البشرية التي موضعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها؟!».

وقال المباركفوري[٣]: «قال الغزالي: مجالسة الحريص ومخالطته تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد ومخاللته تزهد في الدنيا، لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع من حيث لا يدري».

واعلم أن المرء على دين خليله، وخُلُقه من خُلُق قرينه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[٤].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ»[٥].

وقال الشاعر:

أنـــت في النـــاس تقـــاسُ ... بـــالذي اخـــترتَ خلـــيلا

---

(١) «شرح مسلم» (١٧٨/١٦).

(٢) انظر «فيض القدير» (٥٠٧/٥).

(٣) «تحفة الأحوذي» (٤٩/٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣) وغيره، وحسنه الألباني.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢) وغيره، وحسنه الألباني.

فاصـــــحب الأخيـــــار تعـــــلُ وتَنَـــــلْ ذكـــــرًا جمـــــيلا

وقال غيره:

نـــافس إذا نافســـت في حكمـــةٍ آخِ إذا آخيـــتَ أهـــلَ التُّـــقى

مـــا خـــيرُ مَـــنْ لا يُـــرتجى نفعُـــهُ يومًـــا ولا يُـــؤمَن منـــه الأذى

وفي عاقبة وندم مَن لم يتبع سبيل المؤمنين، وخالل المُضِلين دون المتقين، قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

وقال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧].

قلت: فإن خلت الديار ـ ولن تخلو ـ من أخي مودة وتقًى، وقَوِيَتْ من صاحب صلاحٍ وهدًى، فعليك ببطون الكتب، فطالع فيها أخبار الصحابة والتابعين، وسِيَر الأتقياء والصالحين، والعبّاد والذاكرين، والنبلاء والزاهدين، والأبطال والمجاهدين، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فإنك ستجد فيها ضالتك، وستقع فيها على طُلبتك.

وتفكر كيف أنهم صرفوا أوقاتهم، وأفنَوا أعمارهم في طاعة الله تعالى، ونصر دينه وتبليغه ونشره، والجهاد في سبيله لإعلاء كلمته.

عندها ستستقل ما عندك من طاعات، بالمقارنة مع هؤلاء المرضيّين؛ جند الله وأحبته، وعباده وصفوته، وستشحذ همتك للتشبه بهم، والمسارعة في الخيرات مثلهم، والإكثار منها، والتنافس فيها، فضلًا عن الثبات على ما أنت عليه وحراسته من الزوال!

فانظر مثلًا إلى حال ابن القيم وأصحابه، وهم خارج السجن، كيف كان أثر صحبتهم لشيخ الإسلام وأثر كلامه فيهم، وهو في السجن!!! وهي من عجائبه!:

قال ابن القيم(١): «ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد:١٣]. وعَلِم اللهُ ما رأيت أحداً أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسَرّهم نفسًا، تَلُوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطُمَأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من رَوْحها ونسيمها وطِيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها». اهـ.

وهكذا هو حال الدعاة الصادقين، والعلماء الربانيين، تتحول السجون في حقهم أماكن دعوة إلى الله تعالى، ودور علم، ومدارس قرآن، وتنقلب المحنة منحة، والبلية عطية، إذ إن رحمة الله لا تحجبها الأسوار، ولا تحول دونها القضبان، وما قصة نبي الله يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام عنا ببعيد!

قال الله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر:٢].

قال بعض من لمس هذا وتذوقه: «ورحمة الله لا تَعِز على طالب في أي مكان، ولا في أي حال، وجدها إبراهيم عليه السلام في النار، ووجدها يوسف عليه السلام في الجب كما وجدها في السجن، ووجدها يونس عليه السلام في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، ووجدها موسى عليه السلام في اليم وهو طفل

(١) «الوابل الصيب» (ص ٤٨).

مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به ويبحث عنه. ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور. فقال بعضهم لبعض: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكهف:١٦]. ووجدها رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويَقُصّون الآثار، ووجدها كل من آوى إليها يأسًا من كل ما سواها، منقطعًا عن كل شبهة في قوة، وعن كل مَظَنة في رحمة، قاصدًا باب الله وحده دون الأبواب».

ثم قال: «لقد واجهتني هذه الآية في هذه اللحظة وأنا في عسر وجَهد وضيق ومشقة، ويسر الله لي أن أطلع منها على حقيقتها، حقيقةٍ أذوقها لا معنًى أُدركه، فكانت رحمة بذاتها، تقدِّم نفسها لي تفسيرًا واقعيًّا لحقيقة الآية التي تفتحت لي تفتحها هذا، وقد قرأتها من قبل كثيرًا، ومررت بها من قبل كثيرًا، ولكنها اللحظة تسكب رحيقها وتحقق معناها، وتنزل بحقيقتها المجردة، وتقول: هأنذا نموذجًا من رحمة الله حين يفتحها، فانظر كيف تكون! إنه لم يتغير شيء مما حولي، ولكن لقد تغير كل شيء في حسي! إنها نعمة ضخمة أن يتفتح القلب لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود، كالحقيقة الكبرى التي تتضمنها هذه الآية، نعمة يتذوقها الإنسان ويعيشها، ولكنه قلما يقدر على تصويرها، أو نقلها للآخرين عن طريق الكتابة، وقد عشتها وتذوقتها وعرفتها، وتم هذا كله في أشد لحظات الضيق والجفاف التي مرت بي في حياتي، وهأنذا أجد الفرج والفرح والرِّي والاسترواح والانطلاق من كل قيد ومن كل كرب ومن كل ضيق، وأنا في مكاني(١)! إنها رحمة الله يفتح الله بابها ويسكب فيضها في آية من آياته، آية من القرآن تفتح كوّة من النور، وتفجر يَنبوعًا من الرحمة، وتشق طريقًا ممهودًا إلى الرضا والثقة والطُّمأنينة والراحة، في ومضة عين، وفي نبضة قلب، وفي خفقة جنان، اللهم حمدًا لك،

---

(١) يقصد السجن.

اللهــم منزلَ هذا القرآن هدًى ورحمة للمؤمنين». انتهى مختصرًا.

وقال ابن مفلح(١): «قيل لعبد الله بن المبارك: كيف لا تستوحش في مكانك وحدك؟! فقال: كيف يستوحش من هو مُجالس للنبي عليه السلام والصحابة والتابعين رضي الله عنهم؟! يعني: الكتب التي فيها الأخبار والسِّيَر، والله أعلم. ذكره المعافى بن زكريا في مجالسه». اهـ.

وعن سفيان بن عيينة قال: اسلكوا سبيل الحق ولا تستوحشوا من قلة أهله(٢).

وقال ابن القيم(٣): «قال بعض السلف: عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين». اهـ.

والزم كتاب الله تعالى، ففيه نبأ من قبلنا من الأقوام، وأخبار وقصص الأنبياء الكرام، عليهم الصلاة والسلام، وتَتَبَّعْ سيرة نبيه الكريم ﷺ، ففيها مكارم الأخلاق والدين والهدى، ومجامع الخيرات والزهد والتقى.

قال الله سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

قال شيخ الإسلام(٤): «إذا افتقر العبد إلى الله ودعاه، وأدمن النظر في كلام الله، وكلام رسوله، وكلام الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، انفتح له طريق الهدى». اهـ

واجتنِب أخبار الكفرة والملحدين وآثارهم، ولا تنظر في كتبهم ومقالاتهم، مهما كنت تعتقد في نفسك من القوة على التغلب على ما يزينونه من الشهوات، والقدرة على دفع ما يلقونه من الشبهات.

ولا تَتَبَّعْ إعلامهم، ولا تغترّ بدِعايتهم، خصوصًا في زمن الفتن وإبّان الحروب.

---

(١) «الآداب الشرعية» (٦٠٧/٣).

(٢) «التمهيد» (٤٢٩/١٧)، و«الاعتصام» (٤٣/١).

(٣) «مدارج السالكين» (٤٦/١).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١١٨/٥).

والحذر كل الحذر مما يَلْبِسون على المسلمين، ويطعنون في الموحدين، ويعيبون أهل الحق، ويفترون على المصلحين، فتراهم يتهمونهم بأبشع الأوصاف، ويتفننون في تنفير الناس عنهم، فيقع في حبالهم الجهلة، من رقيقي الدين، وقليلي العلم، وعوامّ المسلمين، وجبنائهم، وشبابهم وغيرهم من المتأثرين والمغترين بالكافرين.

وعندها قَلّ أن ينجو من خداعهم ويسلم من حِيَلهم أحد، خصوصًا إذا كانت معظم أدوات الإعلام بأيديهم، وكانوا أصحاب القوة والنفوذ والسيطرة، وكان يساندهم فيها علماء السلطان، ومشايخ السوء، ولِحى النفاق، ومفتو الضلال، وعمائم الهوى، الذين همهم الدنيا والمال والنساء والقصور والسيارات وغيرها، وهمتهم في بطونهم وفروجهم، ممن أكثرهم في الأصل إنما وظِّفوا لخدمة الباطل، وخُبِّئوا لأيامه العصيبة، التي يتحير فيها الحليم، وينخدع بها العليم، ولا يثبت فيها إلا من رسخت قدمه في علم الشريعة، ومعرفة عقيدة أهل السنة والجماعة، وصفات الفرقة الناجية، ولم ينتسب إليها علومًا دون أعمال، وأقوالًا بلا أفعال!

نصر دين الله عز وجل

أما أنتم أيها المجاهدون، يا من اختاركم الله عز وجل لنصر دينه، وإعلاء كلمته، وقتال أعدائه، والدفاع عن أعراض عباده، وحماية ثغورهم، فالتثبيت كل التثبيت لكم، فأبشروا بوعد الله لكم به، وبالنصر والفلاح، وبالفوز بأعلى الدرجات، إذا اتقيتم وصبرتم، ونصرتم الله عز وجل، وأخلصتم له، وتوكلتم عليه، وأكثرتم ذكره.

قال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد:٧].

قال ابن سعدي: «هذا أمر منه تعالى للمؤمنين، أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويُصَبِّر أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم

صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، وييسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره». اهـ.

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال:٤٥].

فالثبات هو أعظم أسباب النصر وتَرْكُه والتحولُ عنه أعظم أسباب الهزيمة والفشل، كما حصل للمسلمين يوم أحد بمعصية الرماةِ أمرَ النبي ﷺ وعدمِ ثباتهم في أماكنهم من الجبل مقابلَ خالد بن الوليد ومن معه من المشركين، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران:١٥٢]. الآية.

فلما رأى بعض رماة المسلمين ظَفَرَ المسلمين ورأَوُا الغنائم تأوّلوا أمرَ النبي ﷺ! وتركوا أماكنهم ولم يثبتوا فيها، فكان الظفر آخر المعركة والظهور للمشركين على المسلمين!

قال ابن جرير: «يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾، أيها المؤمنون من أصحاب محمد ﷺ بأُحُدٍ وعده الذي وعدهم على لسان رسوله محمد ﷺ، و«الوعد» الذي كان وعدهم على لسانه بأُحُدٍ، قوله للرماة: «اثبتوا مكانكم ولا تبرحوا، وإن رأيتمونا قد هزمناهم، فإنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم». وكان وعدهم رسول الله ﷺ النصر يومئذ إن انتهوا إلى أمره». اهـ.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: جعل النبيُّ ﷺ على الرَّجَّالة يومَ أُحُدٍ، وكانوا خمسين رجلًا عبدَ الله بن جُبَيْرٍ، فقال:

«إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ، هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ». الحديث(١).

---

(١) أخرجه البخاري وغيره.

وقال الله سبحانه فيما قاله في شأن معركة أحد ومعركة بدر: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢١-١٢٦].

وقال سبحانه في شأن بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:٩-١٢]. الآيات.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ... فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان:

«إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ، مَا نَافَحْتَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ»(١).

وقال فيمن قاتل مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الرِّبِّيِّين: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ

---

(١) بعض حديث، متفق عليه، وهذه الجملة عند مسلم وحده.

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨].

وقال سبحانه في طالوت وجنوده وفي قتل نبي الله داود عليه الصلاة والسلام جالوت: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٩-٢٥١].

مجاهدة النفس

ومن أعظم أسباب الثبات: أن يجاهد العبد نفسه باستمرار، ويحاسبها على الدوام، ويلومها على التقصير ليل نهار.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا ﴾؛ أي: بذلوا جهدهم وطاقتهم في رضانا، محبة لنا وخوفًا منا ورجاءً، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾؛ أي: يهديهم ربهم عز وجل إلى كل طرق الهداية الموصلة إليه، علمًا وعملًا، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾؛ أي: بالهداية والنصر والتأييد والتثبيت.

وعليه أن لا يهمل ذلك أبدًا، فإن ترْكها دون مجاهدة ومحاسبة هو سبب

خسرانها وهلاكها، كما هو حال التاجر في تجارته، والشريك مع شريكه، إن أهمل محاسبته فاتته الأرباح، وخسر بعض ماله، إلى أن يخسر رأس ماله، وتضييع تجارته، فكيف إذا كان الشريك خائنًا أو ظالمًا أو جاهلًا، عندها فليَبْشُر بالإفلاس!

والمرء مع نفسه في عبادة ربه عز وجل كما الشريك مع شريكه، بل أشد، فإن النفس ظالمة جاهلة، أضف إلى ذلك أنها أمارة بالسوء!

قال الله تعالى حاكيًا عن امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف:٥٣].

قال ابن القيم(١): «وقد أخبر سبحانه أنها أمارة بالسوء ولم يقل «آمرة» لكثرة ذلك منها، وأنه عادتها ودأبها، إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير، فذلك من رحمة الله لا منها، فإنها بذاتها أمارة بالسوء، لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة إلا مَنْ رحمه الله، والعدل والعلم طارئ عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها، فلم تكن أمارة إلا بموجب الجهل والظلم، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة». اهـ.

وكان [الحسن] يقول: إن النفس أمارة بالسوء، فإن عصتك في الطاعة فاعصها أنت في المعصية(٢).

ومن لم يستطع أن يجاهد نفسه كيف سيجاهد عدوه؟!

وعن فَضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حَجة الوداع: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ،

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٧٧/١).

(٢) «آداب الحسن البصري» لابن الجوزي (ص ٣٠).

وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»[1].

قال ابن القيم[2]: «قال رجل للحسن البصري رحمه الله تعالى: يا أبا سعيد، أي الجهاد أفضل؟ قال: جهادك هواك.

وسمعت شيخنا يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولًا حتى يخرج إليهم».

وقال[3]: «وجهاد النفس أربع مراتب ....:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق، الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيًّا حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه». اهـ.

وأعظم ما يستعين العبد به على نفسه ويجاهدها به هو كثرة الصلاة، فعن ربيعة بن كعب الأسلمي، قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ، فأتيته بوَضوئه وحاجته، فقال لي: «سَلْ». فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟»

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٢١)، وابن ماجه (٣٩٣٤)، وابن حبان (٤٨٦٢)، واللفظ له، وغيرهم، وصححه الألباني.

(٢) «روضة المحبين» (ص ٤٧٨).

(٣) «زاد المعاد» (٣/١٠).

قلت: هو ذاك. قال: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[1].

قال الطِّيبي[2]: «فلَوَّحَ بقوله: (أعِنِّي علي نفسك) إلى أن نفسه بمثابة العدو المناوئ، فاستعان بالسائل على قهر النفس وكسر شهواتها بالمجاهدة والمواظبة على الصلاة، والاستعانة بكثرة السجود، حسمًا للطمع الفارغ من العمل، والاتكال على مجرد التمني».

تدريب النفس

ومن مجاهدة النفس: تطويعها على الإخلاص في الأعمال، وترك الرياء فيها، وفعلها ابتغاء مرضاة الله عز وجل، وأدائها على وجه الجزم بها دون تردد، وتدريب النفس على ذلك وترويضها، حتى تنطبع به وتتعود عليه.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٦٥].

قال ابن عاشور: «والتثبيت تحقيق الشيء وترسيخه، وهو تمثيل يجوز أن يكون لكبح النفس عن التشكك والتردد؛ أي: أنهم يمنعون أنفسهم من التردد في الإنفاق في وجوه البر ولا يتركون مجالًا لخواطر الشح، وهذا من قولهم: ثبت قدمه؛ أي: لم يتردد ولم ينكص، فإن إراضة النفس على فعل ما يشق عليها لها أثر في رسوخ الأعمال، حتى تعتاد الفضائل وتصير لها ديدنًا.

وإنفاق المال من أعظم ما ترسخ به الطاعة في النفس، لأن المال ليس أمرًا

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٩) وغيره.

(٢) «شرح المشكاة» (١٠٢٧/٣).

هينًا على النفس[1].

ويجوز أن يكون «تثبيتًا» تمثيلًا للتصديق؛ أي: تصديقًا لوعد الله وإخلاصًا في الدين، ليخالف حال المنافقين، فإن امتثال الأحكام الشاقة لا يكون إلا عن تصديق للآمر بها، أي: يَدُلّون على تثبيت من أنفسهم.

ويجيء على الوجه الأول في تفسير التثبيت معنًى أخلاقيٌّ جليل أشار إليه الفخر، وهو ما تقرر في الحكمة الخُلُقية أن تكرر الأفعال هو الذي يوجب حصول المَلَكة الفاضلة في النفس، بحيث تنساق عَقِب حصولها إلى الكمالات باختيارها، وبلا كلفة ولا ضجر.

فالإيمان يأمر بالصدقة وأفعال البر، والذي يأتي تلك المأمورات يُثَبِّت نفسَه بأخلاق الإيمان، وعلى هذا الوجه تصير الآية تحريضًا على تكرير الإنفاق». انتهى مختصرًا.

وهكذا قس على الإنفاق سائر الطاعات، من صلاة وصيام وغيرها، فطوِّع نفسك وجاهدها ومرِّنها عليها، وكذلك مرِّنها على ترك المعصية، من غض البصر وحفظ الفرج وغيرها، وصبِّرها، وخوِّفها تارة ورجِّها أخرى، وذكِّرها ما أمامها من عاقبة فعل الخير، وعقوبة فعل الشر، «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ»، كما قال النبي ﷺ[2].

ولله در من قال:

صبرتُ عن اللذات حتى تولتِ ... وألزمتُ نفسي تركَها فاستمرتِ
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن تُوِّقَتْ تاقت وإلا تسلتِ

---

(١) وقال رسول الله ﷺ في ضمن حديث: «وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ». أخرجه مسلم (٢٢٣) وغيره.
قال ابن المَلَك: «(وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ)؛ أي: دليل واضح وحجة على صدق صاحبها في دعوى الإيمان؛ لطِيبِ نفسه بإخراجها، إذ المال شقيق الروح». «شرح المصابيح» (١/٢٢٦).

(٢) بعض حديث، متفق عليه.

ولعنترة:

وأَغُضُّ طـرفي مـا بَـدَتْ لي جـارتي حتـــى يـــواري جارتـــي مأواهـــا

إني امــرؤٌ سَمْـــحُ الخليقـــةِ ماجــدٌ لا أُتْبِـعُ النفـــسَ اللجـــوجَ هواهـــا

وقال الحسن: ما الدابةُ الجموحُ بأحوجَ إلى اللِّجام الشديد من نفسك[1]. اهـ.

وقال ابن القيم[2]: «في النفس: كبر إبليس، وحسد قابيل، وعُتُوّ عاد، وطغيان ثمود، وجرأة نمرود، واستطالة فرعون، وبغي قارون، وقِحَة هامان، وهوى بَلعام، وحِيَل أصحاب السبت، وتمرد الوليد، وجهل أبي جهل.

وفيها من أخلاق البهائم: حرص الغراب، وشَرَه الكلب، ورعونة الطاووس، ودناءة الجُعَل، وعقوق الضَّبّ، وحقد الجمل، ووثوب الفهد، وصولة الأسد، وفسق الفأرة، وخبث الحية، وعَبَث القرد، وجمع النملة، ومكر الثعلب، وخفة الفراش، ولؤم الضبع.

غير أن الرياضة والمجاهدة تذهب ذلك، فمن استرسل مع طبعه فهو من هذا الجند، ولا تصلح سلعته لعقد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة:١١١]، فما اشترى إلا سلعة هذبها الإيمان، فخرجت من طبعها إلى بلدٍ سكانه التائبون العابدون». اهـ.

واستعذ بالله من الكسل، واعلم أن «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»، كما في الحديث[3].

ooooo

---

(١) «الإحياء» (٧١/٣).

(٢) «الفوائد» (ص ٧٤-٧٥).

(٣) بعض حديث، أخرجه مسلم (٢٦٦٤) وغيره.

إصلاح القلب

ومن أسباب الثبات: العمل بجد على إصلاح القلب، فإن الإنسان بقلبه، وقوته في قلبه، وثباته في قلبه، وهدايته في قلبه، وتقواه في قلبه، وإذا صلح القلب صلحت الجوارح.

قال رسول الله ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(١).

وإنما يصلح القلب بالإيمان والإخلاص والصدق، والتحلي بالأخلاق الحسنة، وبنبذ الكفر والشرك والكذب، والتخلي عن الأخلاق السيئة.

فليُعْنَ عبدٌ موفَّقٌ بقلبه وإصلاحه، ولْيُولِهِ جُلّ اهتمامه، ولا يقصر همته على أعمال جوارحه مع غفلته عن قلبه، فالقلب هو الأصل، فإن كان صالحًا مخلصًا صلحت الأعمال واستقامت الأحوال.

قال ابن رجب(٢): «الإيمان القائم بالقلوب أصل كل خير، وهو خير ما أُوتيه العبد في الدنيا والآخرة، وبه يحصل له سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة من شقاوة الدنيا والآخرة، ومتى رسخ الإيمان في القلب انبعثت الجوارح كلها بالأعمال الصالحة، واللسان بالكلام الطيب، كما قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(٣). ولا صلاح للقلب بدون الإيمان بالله وما يدخل في مسماه، من معرفة الله وتوحيده(٤) وخشيته ومحبته ورجائه وإجابته

---

(١) بعض حديث، متفق عليه.

(٢) «لطائف المعارف» (ص ٢٤٠).

(٣) بعض حديث، متفق عليه.

(٤) والتوحيد هو: إفراد الله سبحانه وتعالى بما يختص به من الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.
وإن شئت قل: هو إفراد الله عز وجل بالعبادة، لأنه هو المستحق لها، لأنه هو الرب الواحد، ولأنه هو الكامل في أسمائه وصفاته وأفعاله.

والإنابة إليه والتوكل عليه». اهـ.

والإيمان والإخلاص لله تعالى هو أعظم ما يثبِّت العبدَ على الحق والدين، ويزيده هدى وتقوى ويقين.

قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [محمد:١٧].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس:٩].

وبالإخلاص يصرف الله تعالى عنه السوء ويقيه من الشرور.

قال تبارك وتعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [يوسف:٢٤].

قال شيخ الإسلام(١): «وإذا كان العبد مخلصًا لله اجتباه ربه فأحيا قلبه واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإن فيه طلبًا وإرادة وحبًّا مطلقًا، فيهوى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مر به عطفه وأماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقى أسيرًا عبدًا لمن لو اتخذه هو عبدًا له لكان ذلك عيبًا ونقصًا وذمًّا.

وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب والقلوب تهواها، فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله.

ومن لم يكن خالصًا لله عبدًا له، قد صار قلبه معبدًا لربه وحده لا

---

(١) «العبودية» (ص ١٢٤).

شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلًا له خاضعًا، وإلا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين».

وقال [١]: «فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور والتعلق بها ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله، ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له، بحيث تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج». اهـ.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢-٨٣].

وعن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بِالْخَيْفِ من مِنًى، فقال:

«نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ» [٢].

قال الزمخشري في «الفائق»: «والمعنى: أن هذه الخلال يُستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الدَّغَل [٣] والفساد. و(عليهن): في موضع الحال؛ أي: لا يغل كائنًا عليهن قلب مؤمن».

وإنما يصلح القلب باتباع الرسول ﷺ، فمن اتبعه وأطاعه كفاه الله تعالى في كل أمور دينه ودنياه، فأرشده وهداه، وسدده ووقاه، وثبته وقواه، فهو حسبه ونعم الوكيل، كما قال جل وعز: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال:٦٤].

---

(١) «العبودية» (ص ٩٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٠٥٦) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) الدَّغَل: الخيانة والرِّيبة والفساد.

قال شيخ الإسلام[1]: «﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾؛ أي: هو وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين. هذا هو القول الصواب الذي قاله جمهور السلف والخلف، والمراد أن الله كافٍ للرسول ولمن اتبعه. فكل من اتبع الرسول فالله كافيه وهاديه وناصره ورازقه». اهـ.

فقد تضمن ما تقدم مما تصلح به القلوب أشياء ثلاثة: الإيمان[2]، والإخلاص، والاتباع، وكل ما سواها يرجع إليها، وهي شروط قبول الأعمال، كما سيأتي تفصيلها.

ولْيجتنب ما يفسد القلب ويذهب بنوره وخشوعه وقوته، من المعاصي والآثام والفضول، وسائر أسباب مرضه وقسوته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ[3] قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]»[4].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبَ، فَإِنَّ مَثَلَ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِبَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَذَا بِعُودٍ، حَتَّى جَمَعُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ»[5].

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (١/٢٩٣).

(٢) وأول ما يدخل في الإيمان: الإيمان بالله، ولا يتحقق الإيمان بالله إلا بتوحيده عز وجل، وذلك بإفراده بالربوبية، وبالأسماء والصفات، وبالألوهية؛ فيعتقد أنه وحده المستحق للعبادة، فيفرده بها، فلا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

(٣) سُقل لغة في صُقل؛ أي: جُلي ولُمِّع وهُذِّب وأُزيل صدؤه، كما يصقل الإناء والسيف، فيصير أملس مصقولًا.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤) وغيره، وحسنه الألباني. وانظر الأحاديث الآتية في ذكر الفتن وعرضها على القلوب (صفحة ١٣٠- ١٣٣).

(٥) أخرجه الطبراني في «معاجمه» الثلاثة (٩٠٤ و٧٣٢٣ و٥٨٧٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٣٨٩).

ولْيحذر اتباعَ خطوات الشيطان، فإنه يسير بالعبد خطوة خطوة، ويتدرج به معصية معصية، من صغيرة إلى مثلها، ثم إلى ثالثة، ثم إلى كبيرة فأختها، فيقع في شِراكه وهو لا يشعر.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور:٢١].

وأول ذلك أن يحفظ خطرات قلبه وأفكاره، وأن يمنعها من الجولان في الشهوات المحرمة، والأماني الكاذبة، والخيالات الفاسدة، فإن إطلاق الخطرات هو مدخل الشيطان الأول، وثغرته التي يدخل منها إلى القلب، وهو أصل الشر كله ومبدؤه.

وتكلم ابن القيم على الخطرات، فقال(١): «وأما الخطرات: فشأنها أصعب، فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه، وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلكات.

وأخس الناس همة وأوضعهم نفسًا من رضي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه وتَحَلَّى بها، وهي لعمر الله رؤوس أموال المفلسين، ومتاجر البطالين، وهي قوت النفس الفارغة، التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال، وهي أضر شيء على الإنسان، ويتولد منها العجز والكسل، وتولد التفريط والحسرة والندم.

والمتمني لمّا فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حَوَّل صورتها في قلبه، وعانقها وضمها إليه، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره، وذلك لا يجدي

---

(١) انظر «الجواب الكافي» (ص ١٨١).

عليه شيئًا، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن، يصور في وهمه صورة الطعام والشراب، وهو لا يأكل ولا ويشرب».

وقال في «فوائده»[1]: «دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة فان لم تفعل صارت شهوة، فحاربها فإن لم تفعل صارت عزيمة وهِمّة، فإن لم تدافعها صارت فعلًا، فإن لم تتداركه بضدِّه صار عادة، فيصعب عليك الانتقال عنها».

وقال[2]: «قاعدة في ذكر طريق قريب يوصل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال، وهي شيئان:

أحدهما: حراسة الخواطر وحفظها والحذر من إهمالها والاسترسال معها، فإن أصل الفساد كله من قبلها يجيء، لأنها هي بذر الشيطان والنفس في أَرض القلب، فإذا تمكن بذرُها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى، حتى تصير إرادات، ثم يسقيها حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال، ولا ريب أن دفع الخواطر أَيسر من دفع الإرادات والعزائم، فيجد العبد نفسه عاجزًا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرط إذا لم يدفعها وهي خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس، فلما تمكنت منه عجز عن إطفائها.

فإن قلت: فما الطريق إلى حفظ الخواطر؟ قلت: أسباب عدة:

أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب تعالى ونظره إلى قلبك وعلمه بتفصيل خواطرك.

الثاني: حياؤك منه.

الثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته[3] الذى خلقه

---

(١) (ص ٤٦).

(٢) «طريق الهجرتين» (ص ٣١٧-٣٢٠ - طبعة قطر).

(٣) يعني القلب، يشير إلى الحديث المشتهر: «القلب بيت الرب». ولا أصل له، وهو من كلام المتصوفة، قال السخاوي: «ليس له أصل في المرفوع، والقلب بيت الإيمان ومعرفته ومحبته».

لمعرفته ومحبته.

الرابع: خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.

الخامس: إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته.

السادس: خشيتك أن تتولد تلك الخواطر ويستعر شرارها فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله، فتذهب به جملة وأنت لا تشعر.

السابع: أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحَب الذي يلقى للطائر ليصاد به، فاعلم أن كل خاطر منها فهو حبة في فخ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر.

الثامن: أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة أصلًا، بل هي ضدها من كل وجه، وما اجتمعا في قلب إلا وغلب أحدهما صاحبه وأخرجه واستوطن مكانه، فما الظن بقلب غلبت خواطر النفس والشيطان فيه خواطر الإيمان والمعرفة والمحبة فأخرجتها واستوطنت مكانها! لكن لو كان للقلب حياة لشعر بألم ذلك وأحس بمصابه.

التاسع: أن يعلم أن تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له، فإذا دخل القلب في غمراته غرق فيه وتاه في ظلماته، فيطلب الخلاص منه فلا يجد إليه سبيلًا، فقلب تملكه الخواطر بعيد من الفلاح معذب مشغول بما لا يفيد.

العاشر: أن تلك الخواطر هي وادي الحمقى وأماني الجاهلين، فلا تثمر لصاحبها إلا الندامة والخزي، وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس وعزلته عن سلطانه[١] وأفسدت عليه رعيته وأَلقته في الأسر الطويل، كما أن هذا معلوم في الخواطر النفسانية فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية هي أصل الخير كله، فإن أرض القلب إذا بذر فيها خواطر الإيمان والخشية والمحبة والإنابة والتصديق بالوعد ورجاء الثواب، وسقيت مرة بعد مرة، وتعاهدها صاحبها

---

(١) في المطبوع: «سلطانها»، والصواب ما أثبته، كما سيظهره السياق الآن.

بحفظها ومراعاتها والقيام عليها، أثمرت له كل فعل جميل، وملأت قلبه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات، واستقر بها المَلِك في سلطانه واستقامت له رعيته، ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين ذلك عملت على حفظ الخواطر، وكان ذلك هو سيرها وجل عملها.

وهذا نافع لصاحبه بشرطين:

أحدهما: أن لا يترك به واجبًا ولا سنة.

الثاني: أن لا يجعل مجرد حفظها هو المقصود، بل لا يتم ذلك إلا بأن يجعل موضعها خواطر الإيمان والمحبة والإنابة والتوكل والخشية، فيفرِّغ قلبه من تلك الخواطر ويَعمره بأضدادها، وإلا فمتى عمل على تفريغه منهما معًا كان خاسرًا، فلا بد من التفطن لهذا».

حفظ اللسان

واعلم أن استقامة اللسان أساس استقامة القلب، كما في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ». الحديث(١).

فاحفظ لسانك على ذكر الله تعالى وما والاه، واحبسه عن الغيبة والنميمة والفحش والسباب ونحوها، ولا تستقل أمره، ولا تستهن بما يقع منه من طاعة أو معصية.

قال الله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨].

وقد قيل: المرء بأصغريه؛ قلبه ولسانه.

والمعنى: أنه يَكْمُل ويَرتفع بهما، أو يَنْقُص وينخفض.

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٠٤٨) وغيره. وهو في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٤١).

ولزهير:

لسانُ الفتى نِصْـفٌ ونِصْـفٌ فـؤادُهُ   فلَـمْ يَبْـقَ إلا صـورةُ اللَّحْـمِ والدَّمِ

وسيأتي أن النبي ﷺ سئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الْفَمُ وَالْفَرْجُ».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، رفعه، قال:

«إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ، فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»[١].

قال المناوي[٢]: «فنُطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان، فلله دره من عضو ما أصغره وأعظم نفعه وضره!».

الصدق

وأهم ما يستقيم به اللسان هو الصدق، فإنه الخُلُق الأعظم الهادي إلى سائر الأخلاق الحسنة، واجتناب الكذب، فإنه الخُلُق الأرذل الهادي إلى سائر الأخلاق السيئة، كما في حديث عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[٣].

والصدق يكون باللسان، ويكون بما انطوى عليه الجَنان، وتُصَدّق ذلك وتؤكده الأعمال.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٧) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) «التيسير بشرح الجامع الصغير» (٧٥/١).

(٣) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

والصدق يكون مع الله عز وجل بإخلاص الإيمان والأعمال، وهو أعظم الصدق، ويكون مع الرسول ﷺ بالاتباع التام، ومع الخلق بصدق التعامل وصدق اللسان.

فلْينظر عبدٌ إلى نيته، ولْيتعاهد قلبه، ولْيصدُق مع ربه تبارك وتعالى ولْيخلص له، ولْيصدُق مع خلقه، فإن الصدق يُبَلِّغه رضا الله عنه وقبول عمله، وإنه ليُكتب له أجرُ العمل لو عجز عنه بصدق نيته وأنه لو قَدِر عليه لفعله.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

ومن أجمع ما في كتاب الله عز وجل في ذكر خصال الصادقين وأعمالهم قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

وأيضًا، فإن العبد إذا صدق الله تعالى وأخلص له الدين، وأخذه بقوة ومحبة وجِدّ، واتبع هَدي نبيه ﷺ، ورضيت نفسه بذلك، ذاق طعم الإيمان ووجد حلاوته، عندها لم يكن شيء عنده ألذَّ من الطاعة ولا أحلى، فيزداد منها ويستكثر، ويتمسك بها، وتصبح غذاءه ودواءه، وقرة عينه، لها يحن وإليها يأوي، بحيث لا يستغني عنها أبدًا.

وكما قيل: من ذاق عرف، ومن عرف اغترف.

فيقبل على العبادة من صلاة وصيام، وتلاوة وذكر، وصدقة وجهاد، وسائر

ما يقوى عليه وينفتح له وييسره الله له، ويخشع في صلاته، وتصير قرة عينه بعد أن كانت كبيرة عليه، ومهما عوتب في شيء من ذلك لم يلتفت إلى معاتبه، ومهما عُذِل لم يكترث لعاذله:

محبة الله ورسوله

كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولا يذوق حلاوة الإيمان ولا يجد طعمه، إلا من كان الله تعالى ورسوله ﷺ أحب إليه مما سواهما، وهذا الحب هو السبب الأعظم، والحبل الأمتن، والعروة الوثقى، للثبات على الدين والتمسك به.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(١).

وفي لفظ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

وفي لفظ: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

قال ابن بطال(٢): «معنى وجود حلاوة الإيمان: هو استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات، فيما يرضي الله تعالى ورسوله ﷺ، وإيثار ذلك على عَرَض الدنيا،

---

(١) متفق عليه. واللفظ الثالث لمسلم.

(٢) «شرح صحيح البخاري» (٦٦/١).

رغبة في نعيم الآخرة الذى لا يبيد ولا يفنى».

قال ابن رجب[1]: «فهذه الثلاث خصال من أعلى خصال الإيمان، فمن كمّلها فقد وجد حلاوة الإيمان وطَعِمَ طَعْمَه، فالإيمان له حلاوة وطَعم يذاق بالقلوب كما يذاق حلاوة الطعام والشراب بالفم، فإن الإيمان هو غذاء القلوب وقُوتُها كما أن الطعام والشراب غذاء الأبدان وقُوتُها، وكما أن الجسد لا يجد حلاوة الطعام والشراب إلا عند صحته فإذا سَقم لم يجد حلاوة ما ينفعه من ذلك، بل قد يستحلي ما يضره وما ليس فيه حلاوة لغلبة السَّقْم عليه، فكذلك القلب إنما يجد حلاوة الإيمان إذا سلم من أسقامه وآفاته، فإذا سلم من مرض الأهواء المضلة والشهوات المحرمة وجد حلاوة الإيمان حينئذ، ومتى مرض وسَقم لم يجد حلاوة الإيمان، بل يستحلي ما فيه هلاكه من الأهواء والمعاصي». اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا، نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»[2].

وقال شيخ الإسلام[3]: «محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله، وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين».

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»[4].

(١) «فتح الباري» (٥٠/١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٣٢) وغيره.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٤٨/١٠).

(٤) أخرجه مسلم (٣٤) وغيره.

قال ابن القيم[1]: «هذا الحديث عليه مدار مقامات الدين وإليه ينتهي، وقد تضمن الرضا بربوبيته سبحانه، وألوهيته، والرضا برسوله والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصدِّيق حقًّا، وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها من ذلك، تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقًا، فهو على لسانه لا على حاله.

فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه، فِعْلَ الراضي بمحبوبه كل الرضا، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به. والثاني: يتضمن رضاه بما يقدَّر عليه.

وأما الرضا بنبيه رسولًا: فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يُحكِّم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتة، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكامِ ظاهره وباطنه، لا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه، فإن عجز عنه كان تحكيمه غيرَه من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يُقيته إلا من الميتة والدم! وأحسن أحواله أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور!

وأما الرضا بدينه: فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضا، ولم

---

(١) انظر «مدارج السالكين» (٢/١٧٢-١٧٣).

يبق في قلبه حرج من حكمه وسلم له تسليمًا، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها، أو قول مُقَلَّده وشيخه وطائفته.

وهاهنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم، فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد، فإنه والله عين العزة، والصحبة مع الله ورسوله، وروح الأنس به، والرضا به ربًّا، وبمحمد ﷺ رسولًا، وبالإسلام دينًا.

بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب وذاق حلاوته وتنسم روحه قال: اللـهم زدني اغترابًا ووحشة من العالم وأُنسًا بك. وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب وهذا التفرد رأى الوحشةَ عينَ الأنس بالناس، والذلَّ عينَ العز بهم، والجهلَ عينَ الوقوف مع آرائهم وزُبالة أذهانهم، والانقطاعَ عينَ التقيد برسومهم وأوضاعهم، فلم يُؤْثر بنصيبه من الله أحدًا من الخلق، ولم يبع حظه من الله بموافقتهم فيما لا يجدي عليه إلا الحرمان، وغايته مودةُ بينِهم في الحياة الدنيا، فإذا انقطعت الأسباب، وحقت الحقائق، وبُعثر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، وبُلِيت السرائر، ولم يجد من دون مولاه الحق من قوة ولا ناصر، تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران، وما الذي يخف أو يرجح به الميزان، والله المستعان، وعليه التكلان». اهـ.

وعن عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطِ الْهَرِمَةَ وَلَا الدَّرِنَةَ وَلَا الْمَرِيضَةَ، وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهَا، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بَشَرِّهَا، وَزَكَّى نَفْسَهُ». فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»(١).

وقال عبادة بن الصامت لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٨٢)، والطبراني في «الصغير» (٥٥٥ - الروض)، واللفظ له، وغيرهما، وصححه الألباني.

حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ، وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»[(١)].

وقال شيخ الإسلام[(٢)]: «ليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة إلا نعيم الإيمان والمعرفة».

وقال ابن القيم[(٣)]: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور.

يعني: أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا، من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراحٍ، وقرة عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول». اهـ.

وعن الحسن قال: تفقدوا الحلاوة في الصلاة، وفي القرآن، وفي الذكر، فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق[(٤)].

نسأل الله أن يذيقنا حلاوة الإيمان، وأن يرزقنا طمأنينة الإيقان، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

مراقبة الله تعالى

ومن الايمان أن تؤمن باطلاع الله عليك دائمًا، وأنه يسمعك ويراك، ويعلم سرك ونجواك، يسمع أقوالك ويرى أفعالك، ويشهد حسناتك وسيئاتك، وهو عليم بذات الصدور، وهذا ما يسمى بالمراقبة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣١/٢٨).

(٣) «مدارج السالكين» (٦٨/٢).

(٤) «حلية الأولياء» (١٧١/٦ و١٤٦/١٠)، و«مدارج السالكين» (٣٩٦/٢).

قال الله سبحانه: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس:٦١].

وقال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام:٣].

وقال سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [التغابن:٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك:١٣-١٤].

وقال سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر:١٩].

فإذا أيقنت بذلك وباشرتْ قلبَك رقابةُ الله عليك داومت على طاعته وثبت على دينه، ولم تخرج عن الطريق أبدًا، إلا ما لا بد منه مما تقتضيه الخلقة البشرية من النقص والضعف والفتور، فإن حصل شيء من ذلك فقصرت في أمر أو وقعت في نهي سارعت بحكم ما عندك من إيمان باطلاع الله عليك وعلمه بك إلى التوبة والندم، وأصلحت ما أفسدت، وجبرت ما كسرت، وصرت كأن لم تذنب، بل ولعلك تعود إلى أحسن مما كنت عليه، وذلك بحسب قوة ندمك وما تبعه من العمل الصالح.

وإذا أيقنت بذلك استحييت من الله تعالى أن يراك على ما يكره مثل استحيائك ممن تُعَظِّم من الخلق.

قال تبارك اسمه: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ

﴿يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء:١٠٨].

وعن سعيد بن يزيد الأزدي رضي الله عنه، أنه قال للنبي ﷺ: أوصني. قال: «أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ»(١).

قال المناوي(٢): «قال ابن جرير: هذا أبلغ موعظة وأبين دلالة، بأوجز إيجاز وأوضح بيان، إذ لا أحد من الفسقة إلا وهو يستحي من عمل القبيح عن أعين أهل الصلاح وذوي الهيئات والفضل، أن يراه وهو فاعله، والله مطلع على جميع أفعال خلقه، فالعبد إذا استحى من ربه استحياءه من رجل صالح من قومه تجنب جميع المعاصي الظاهرة والباطنة، فيا لها من وصية ما أبلغها! وموعظة ما أجمعها!».

وقال الراغب(٣): «فأما مداواة اكتساب الحياء: فحق الإنسان إذا هم بقبيح أن يتصور أَجَلَّ مَنْ في نفسه، حتى كأنه يراه، فالإنسان يستحي ممن يكبُر في نفسه، ولذلك لا يستحي من الحيوان ولا من الأطفال، ولا من الذين لا يميزون، ويستحي من العالم أكثر مما يستحي من الجاهل، ومن الجماعة أكثر مما يستحي من الواحد».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ». قال: قلنا: يا رسول الله، إنا نستحيي والحمد لله، قال:

«لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الْإِسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٥٣٩)، واللفظ له، وأحمد في «الزهد» (٢٤٨)، وغيرهما، وهو في «السلسلة الصحيحة» (٧٤١).

(٢) «فيض القدير» (٩٦/٣).

(٣) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (ص ٢٠٨).

وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ»(٢).

هذا، ولا شيء أنفع في زكاة نفسك وصلاح قلبك من دوام هذه المراقبة، وقد صرح بذلك النبي ﷺ، فيما رواه عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ». وفيه: «وَزَكَّى نَفْسَهُ». فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال:

«أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»(٣).

واعلم أن هذه المراقبة تزيد وتنقص وتقوى وتضعف، بحسب إيمانك ومعرفتك بالله تعالى وبأسمائه وصفاته، وأنه العظيم الذي يجب أن يطاع ولا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، فيزداد بذلك إيمانك ويقوى إيقانك، إلى أن تصير تعبد الله كأنه تراه، وهو ما يسمى بالإحسان، وهو أعلى درجات الإيمان وأشرفها، وتعريفه ـ كما قال النبي ﷺ ـ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». الحديث(٤).

غض البصر وحفظ الفرج

ومن أعظم ما تصلح به القلوب وتستقيم، وتزكو به النفوس وتستنير، وتثبت به على الصراط المستقيم: غض البصر وحفظ الفرج، وإن إطلاق البصر

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٨١) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٨٢)، وغيره، وصححه الألباني. وقد تقدم تامًّا قبل قليل.

(٤) بعض حديث، متفق عليه.

وإهمال الفرج سبب لكل هلاك وفساد، وما من مفسد لقلب العبد ودينه مثلهما، وغض البصر هو أساس حفظ الفرج.

وفي غض البصر وحفظ الفرج قال العليم الخبير سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

قال شيخ الإسلام[1]: «فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أقوى تزكية للنفس، وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور، من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك».

وقال ابن سعدي: «﴿ذَٰلِكَ﴾ الحفظ للأبصار والفروج، ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾: أطهر وأطيب وأنمى لأعمالهم، فإن من حفظ فرجه وبصره طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم الذي تطمع إليه النفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ومن غض بصره عن المحرم أنار الله بصيرته، ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته مع داعي الشهوة كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظًا، فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه وعمل الأسباب الموجبة لحفظه لم ينحفظ، كذلك البصر والفرج إن لم يجتهد العبد في حفظهما أوقعاه في بلايا ومحن».

قال: «ثم ذكَّرهم بعلمه بأعمالهم ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات». اهـ.

وعن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: ما أَيِسَ الشيطان من شيء إلا أتاه من قِبَل النساء.

ثم قال لنا سعيد ـ وهو ابن أربع وثمانين سنة، وقد ذهبت إحدى عينيه،

(١) «العبودية» (ص ٩١).

وهو يعشو بالأخرى ـ: ما شيء أخوف عندي من النساء[(١)].

وقال: ما خِفْتُ على نفسي شيئًا مخافةَ النساء. قالوا: يا أبا محمد، إن مثلك لا يريد النساء، ولا تريده النساء. فقال: هو ما أقول لكم.

وكان شيخًا كبيرًا أعمش[(٢)].

وعن وكيع قال: خرجنا مع سفيان الثوري في يوم عيد فقال: إن أول ما نبدأ به في يومنا غض أبصارنا[(٣)].

وعن العلاء بن زياد قال: لا تُتبع بصرك رداء المرأة، فإن النظر يجعل شهوة في القلب[(٤)].

وعن إبراهيم بن أدهم قال: كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب[(٥)].

وقال ابن مفلح[(٦)]: «وليحذر العاقل إطلاق البصر، فإن العين ترى غير المقدور عليه على غير ما هو عليه، وربما وقع من ذلك العشق فيُهلك البدن والدين، فمن ابتُلي بشيء منه فليتفكر في عيوب النساء».

قلت: وليحذر العبد من الخروج إلى أماكن الفتنة والتنزه واللهو، حيث يرى النساء، خصوصًا المتبرجات، وليُقِلّ الخروج إلى الأسواق ما استطاع، فإن في هذا عونًا على غض البصر وتقييدًا لإطلاقه.

هذا ما كنا نقوله دائمًا ونؤكد عليه، ونذكّر به، ونَعُدّه من أسباب الثبات على الدين، قبل أن تنتشر الهواتف، وتكثر القنوات الفضائية، أما وقد انتقل

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/٢٣٧).

(٢) «السير» (٤/٢٤١).

(٣) «الورع» لابن أبي الدنيا (رقم ٦٦).

(٤) «الزهد» لأحمد (رقم ١٤٢٨).

(٥) «حلية الأولياء» (٨/٢٢).

(٦) «الفروع» مع «التصحيح» (٨/٢٨١).

الحال إلى هذا، وصارت الشهوات المحرمات بمتناول اليد وتحت النظر، متى شاء العبد نظر إليها، وفي أي وقت خلا بها، فقد والله صعب الأمر، وجلّ الخطب، وصار الغالب أنه لا دين ليقال: اثبتوا عليه. فإلى الله تعالى المشتكى!

ونسأله سبحانه أن يحفظنا ويحفظ أبناءنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هذا، وفتنة النساء أعظم ما يصد الرجل عن دينه، ويُضْعِف إيمانَه، ويزلزِل إيقانه، ويُزِلّ قدمَه بعد ثبوتها، وفي غض البصر أعظم وقاية، فليختره العاقل قبل أن يستفحل المرض، ويصير بحيث لا ينفع معه دواء، ولا يمكن له شفاء، إلا الكَيّ أو الاستئصال بالكلية! نسأل الله السلامة.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»(١).

ومن خالط الناس، خصوصًا الشباب، وخَبَر أحوالهم، أيقن بهذا الحديث، ولمس صدقه، وعرف أن فتنة النساء هي قضيتهم العظمى، وأن النظر داؤهم الدَّوِيّ، فهو يجرهم إلى ما بعده من المعاصي المتعلقة بالنساء، من تفريغ شهواتهم بشتى الطرق، فيؤدي بكثير منهم بسبب ذلك - كما هو مشاهد - إلى ترك الصلاة، إذ تشق عليهم الطهارة ولا تتهيأ لهم دائمًا! ومن ترك الصلاة فقد كفر، ولا دين لمن لا صلاة له، ولا إيمان لمن لا صلاة له، كما صح في الأحاديث والآثار.

وإذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ـ كما قال ربنا سبحانه ـ فما حال تاركها إذًا؟!! وماذا بقي له بعد عمود الدين يتشبث به لينتهي عنهما؟!!

وإذا سألت أكثر مَنْ وَصفنا، فقلت لأحدهم: لِمَ لا تصلي؟! أمسك ولم يُجِرْ جوابًا، ولم يفصح بحقيقة السبب! لذا فأعرِض عن سؤاله، واشتغل بما ذكرنا،

---

(١) متفق عليه.

وعالجه من مرضه الذي عرفت.

هذا إضافة إلى ما يسببه النظر من الوقوع في مقدمات الزنا، والعياذ بالله تعالى.

ولأمر ما قال العليم الحكيم تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء:٣٢]!

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ».

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الْفَمُ وَالْفَرْجُ»[١].

وقد قيل:

كُلُّ الحـوادثِ مَبْـداها مـن النظـرِ ... ومعظمُ النار من مُستصغَر الشـررِ

كم نظرةٍ فَتكتْ في قلب صـاحبها ... فَتْـكَ السـهامِ بـلا قـوسٍ ولا وَتَـرِ

ولغض البصر وحفظ الفرج أسباب كثيرة سوى ما تقدم ذكره، أهمها الصبر ومنع النفس من شهوتها رغمًا عنها، خوفًا من الله تعالى، ورجاء لما عنده، ومحبة له!! وحياء منه! والاستعانة بالله تعالى على ذلك، ومن ترك لله صادقًا أعانه الله وعوضه ويسر له الأسباب.

ثم وجدت ابن القيم يقول وهو يَعُدّ فوائد غض البصر[٢]: «السابعة: أنه يورث القلب ثباتًا وشجاعة وقوة، فجمع الله له بين سلطان النصرة والحجة، وسلطان القدرة والقوة، كما في الأثر: الذي يخالف هواه يفر الشيطان من ظله».

○○○○○

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) «الداء والدواء» (ص ٤١٩ – طبعة بكر أبو زيد).

العلم بأن التكليف ضمن الوسع

ومن أسباب الثبات على الدين، وعدم التضجر من التكاليف والأوامر والنواهي، والمداومة عليها بانشراح صدر، ورضى نفس، وطُمانينة قلب: العلم بأنها ضمن الطاقة، كما قال ربنا جل وعلا: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وأن المشقة لو قدِّر وحصلت جلبت التيسير، والله أرحم الراحمين، وقد استجاب للمؤمنين لّمّا دعَوْه فقالوا: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾.

فمعرفة هذا والإيمان بكونه كذلك يُرَوِّح القلب، ويُطَيِّب النفس، فيقول المتدين: إن ما أمرني الله تعالى به ما هو إلا ضمن طاقتي، وقَدْر وسعي، ولو عجزت عنه أو عن بعضه لسقط عني ما لا أستطيع القيام به منه، ولو أُمرت بشيء فأنا آتي منه ما استطعت، والله أرحم بي من نفسي ومن والديّ ومن الناس أجمعين، وهو الرؤوف الرحيم، وما أمرني بأمر ولا نهاني عن نهي، ولا عهد إلي بشيء، إلا وهو نافع لي في ديني ودنياي، ولي فيه سعادة الدارين، إذ هو سبحانه الرب الخالق الملك، الذي يدبر أمر السموات والأرض، ويعلم ما فيه مصلحة عباده مما فيه مضرتهم، وهو الغني عني وعن عبادتي وعن طاعتي، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

هذا، وليُعلم حتى أن القيام بأعمال المقربين وعباداتهم، والتحقق بأحوالهم ومقاماتهم، والتحلي بأخلاقهم وصفاتهم - وهم أفضل خلق الله تعالى، المسارعون في الخيرات، وهم لها سابقون - ما هو إلا ضمن الوُسْع، وليس هو من تَكَلُّف العبد ما لا يطيق!! كما قال الجواد الكريم سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ

﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۞ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧-٦٢].

المبادرة بفعل الأمر

وهذا مما يجلب سببًا آخر للثبات: وهو مبادرة العبد بفعل ما أُمِر به، من الإيمان وصالح الأعمال، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۞ وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:٦٦-٦٨].

قال ابن سعدي ـ وما أَجَلّ ما قال! ـ: «يخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس، من قتل النفوس والخروج من الديار، لم يفعله إلا القليل منهم والنادر، فليحمَدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات، لتَخِفَّ عليه العبادات، ويزداد حمدًا وشكرًا لربه.

ثم أخبر أنهم لو فعلوا ما يوعظون به؛ أي: ما وُظِّف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا هممهم، ووفّروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما لم يَصلوا إليه، ولم يكونوا بصدده، وهذا هو الذي ينبغي للعبد، أن ينظر إلى الحالة التي يلزمه القيام بها فيكملها، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى ما قُدِّر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا، وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه ولم يؤمر به بعد، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك، بسبب تفريق الهمة، وحصول الكسل وعدم النشاط.

ثم رَتّب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور:

(أحدها) الخيرية في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أُمروا بها؛ أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار، لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

(الثاني) حصول التثبيت والثبات وزيادته، فإن الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي هو القيام بما وُعِظوا به، فيثبتهم في الحياة الدنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات، يوفقون به لفعل الأوامر وترك الزواجر، التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب التي يكرهها العبد، فيوفَّق للتثبيت، بالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر، فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين عند الموت وفي القبر.

وأيضًا، فإن العبد القائم بما أُمر به، لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.

(الثالث) قوله: ﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾؛ أي: في العاجل والآجل الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(الرابع) الهداية إلى صراط مستقيم، وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحق ومحبته وإيثاره والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هُدِي إلى صراط مستقيم، فقد وُفِّق لكل خير واندفع عنه كل شر وضير». اهـ.

وذكر الله تعالى أنه يثبت الذين آمنوا، ويضل الظالمين، وضرب قبل ذلك مثلًا للإيمان ومثلًا للكفران، فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً

طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٧].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَمّا يُلحد، فجلس رسول الله ﷺ مستقبل القبلة، وجلسنا حوله، وكأنّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عُودٌ يَنكُتُ به في الأرض، فجعل ينظر إلى السماء وينظر إلى الأرض، وجعل يرفع بصره ويخفضه، ثلاثًا، فقال:

«اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»، مرتين، أو ثلاثًا.

ثم قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»، ثلاثًا.

ثم قال: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ(١) مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ (وفي رواية: الْمُطْمَئِنَّةُ)، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ». قال: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، (وفي رواية: حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ)، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ،

---

(١) هو ما يُخلط من الطِّيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة. «نهاية».

وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ [عَزَّ وَجَلَّ]: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]. وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ».

قال: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ ـ يعني بها ـ عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ. بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ * يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:١٩-٢١]. فَيُكْتَبُ كِتَابُهُ فِي عِلِّيِّينَ، ثُمَّ يُقَالُ: أَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي وَعَدْتُهُمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». قال: «فَيُرَدُّ إِلَى الْأَرْضِ، وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ».

قال: «فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الانْتِهَارِ فَيَنْتَهِرَانِهِ، وَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [إبراهيم:٢٧]. فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ. فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ». الحديث(١).

---

(١) صححه الحاكم، والذهبي، وابن القيم، ثم الألباني، وانظره ـ إن شئت ـ بطوله وما فيه من الزيادات الكثيرة والروايات العديدة، في «أحكام الجنائز».

وقال ابن سعدي في تفسير الآية: «يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين؛ أي: الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها، فيثبتهم الله ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها، ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح، إذا قيل للميت: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ هداهم للجواب الصحيح، بأن يقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي».

قلت: وكذلك في الآخرة، في القيامة، يثبتهم ربهم عز وجل عند الحساب وفي سائر المواطن بالقول الثابت والجواب المُنجي.

والعلم بهذا والإيمان به مما يثير الهمم، ويقوي العزائم، على الثبات على الإيمان، والاستقامة على الصراط المستقيم، فالحمد لله الذي ذكر لعباده في كتابه هذا ومثلَه، ورغبهم ورهبهم، وما أكثر ذلك في الكتاب والسنة! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة:٢٤٣، وغافر:٦١].

○○○○○

ذكر الآخرة

ومن أسباب الثبات: إدامة ذكر الآخرة ومعرفة قدرها، وذكر الجنة والنار، والقيامة، وما فيها من الأهوال والأخطار، والحساب والثواب والعقاب.

وهذه الخصلة (أعني: ذكر الآخرة) أعظم ما خص الله عز وجل به عباده، وأخلص به أولياءه، فقال سبحانه ذاكرًا منته على أنبيائه وصفوته: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ [ص:٤٦].

قال ابن جرير: «إنا أخلصناهم بخالصة، هي ذكرى الدار الآخرة، فعملوا لها في الدنيا، فأطاعوا الله وراقبوه».

وقال ابن سعدي: «﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ﴾ عظيمة، وخصيصة جسيمة، وهي: ﴿ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾، جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار، يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعتبر، ويُذكرون بأحسن الذكر».

وفي «المدهش»[1]: «يا من إذا أصبح طلب بالمعاش الشهوات! وإذا أمسى انقلب إلى فراش الغفَلات! أين أنت من أقوام نَصَبوا الآخرة نُصْب أعينهم فنَصَبوا؟! فوَفَر النَّصَبُ نصيبَهم ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾».

فاجعل يا عبد الله الآخرةَ همَّك، وقد كُفِيتِ همومَ الدنيا كلها، وسيأتيك رزقك ونصيبك منها، فإنه مدركك لا محالة، كما أن الموت مدركك لا محالة، كما جاء في الحديث، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا

---

(١) (ص ١٥٦).

وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت نبيكم ﷺ يقول:

«مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ الْمَعَادِ، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهِ هَلَكَ»(٢).

وعن مَعْقِلِ بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَقُولُ رَبُّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا بْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ قَلْبَكَ غِنًى وَأَمْلَأْ يَدَيْكَ رِزْقًا، يَا بْنَ آدَمَ لَا تَبَاعَدْ مِنِّي فَأَمْلَأْ قَلْبَكَ فَقْرًا وَأَمْلَأْ يَدَيْكَ شُغْلًا»(٣).

وذكر الآخرة يورث الخوف من الله تعالى والرجاء لما عنده، وأنه إن زل ولم يثبت ولم يستمر سيقع في العقاب، وسيفوته الثواب، وسيستوجب غضب الله، ويفوته رضاه.

والخوف والرجاء بعد المحبة(٤) هما ركنا السير إلى الله تعالى.

قال تبارك وتعالى عن أنبيائه عليهم الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

قال ابن القيم(٥): «القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٥٧ و٤١٠٦) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الحاكم (٣٢٦/٤) وغيره، وهو في «السلسلة الصحيحة» تحت الحديث (١٣٥٩).

(٤) تقدم الكلام على المحبة.

(٥) «مدارج السالكين» (٥١٧/١).

وقال ابن أبي الدنيا: «بلغني أن بعض الملوك قال لبعض الحكماء: العجب لمن عرف الله وجلاله كيف يخالف أمره وينتهك حريمه؟! فقال الحكيم: بإغفال الحذر، وبسط الأمل، وبعسى وسوف ولعل. قال الملك: بم يُعتصم من الشهوة وقد رُكِّبت في أبدان ضعيفة، ففي كل جزء من البدن للشهوة حلول ووطن؟! قال الحكيم: إن الشهوة من نتاج الفكر، وقرين كل فكرة عبرة، ومع كل شهوة زاجر عنها، فمن قرن شهواته بالاعتبار، وحاط نفسه بالازدجار، انحلت عنه ربقة العدوان، ودحض سَيِّءَ فكره بإيثار الصبر على شهوته، لما يرجو من ثواب الله على طاعته، ويخاف من عقابه على معصيته»(١).

معرفة قدر الدنيا

ومن أسباب الثبات في المقابل: أن تعرف قدر الدنيا وخستها وسرعة زوالها، وما فيها للعصاة من ضنك العيش، ونكد الحياة، وهمومها وغمومها، وعقوبات المعاصي وعواقبها، وأنه ما من لذة محرمة إلا ومعها ما ينغصها، وما من شهوة إلا ومعها ما يكدرها.

فمن عرف قدر الدنيا وقدر الآخرة، وأيقن بما عرف، وباشر قلبه ذلك، صبر وصابر، واجتهد وجاهد، في أيام حياته القليلة، ومدة عمره القصيرة، من أجل الآخرة الأبدية، والحياة السرمدية، التي لا يقاس ولا يقارن طولها وبقاؤها بطول الدنيا وبقائها.

«وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»، كما قال النبي ﷺ(٢).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

---

(١) «ذم الهوى» (ص ٣٠).

(٢) بعض حديث، متفق عليه. وقد تقدم.

وقال سبحانه: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان:١٢].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

قال ابن كثير: «وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات». اهـ.

فاستعن يا عبد الله على جميع أمورك بالصبر، وأيضًا بالصلاة، وبالإكثار من ذكر الله تعالى[1]، فإنه ييسر عليك الطاعات، ويسهل العبادات، ويهون عليك العسير، ويقرب لك البعيد.

ولا يتم لك أمرك هذا حتى تجعل الآخرة نُصْبَ عينيك، والفكرَ في نعيمها وعذابها شغلَ عقلك، والتهيؤَ للقاء الله تعالى والقيام بين يديه همَّ قلبك، كما قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ * ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

فلا تقلق يا عبد الله لدنياك الفانية، واقلق لآخرتك الباقية

وتدبر قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٤].

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢].

وقال سبحانه حاكيًا عن مؤمن آل فرعون يعظ قومه ويوقفهم على حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر:٣٩].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ

---

(١) كما تقدم.

سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٣٣-٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد:٢٦].

يتمتع بها صاحبها وقتًا قصيرًا ما هو إلا كساعة، وهو لا شيء بالنسبة للآخرة، ثم يروح ويتركها، فما أعظم الحسرات عند فراقها! وما أوجع الآلام عند فقدها!

فلا يغرنك عبدَ الله ما في الدنيا من شهوات ومناصب وجاه ورياسة وغيرها، فكله إلى زوال، وسينتقل منك إلى غيرك، ثم إلى غيره، ثم تزول الدنيا كلها!

وعن المستورد بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ:

«وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ ـ وأشار يحي بالسبابة ـ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟»(١).

وعن عتبة بن عبد رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال:

«لَوْ أَنَّ رَجُلًا يُجَرُّ عَلَى وَجْهِهِ، مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَى يَوْمِ يَمُوتُ، هَرَمًا فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ، لَحَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢).

قال المناوي(٣): «لِـما يَرى وينكشف له عيانًا من عظيم نواله وباهر عطائه». اهـ

فيا عبد الله، قارن بين الأمرين، واختر إحدى الدارين، ووالله إن بعض ما ذكرنا من كلام الله تعالى أو كلام رسوله ﷺ لكاف في التزهيد في الدنيا!

وتعقل قول ربك العزيز الرحيم سبحانه: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص:٦١].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨) وغيره.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥/٤) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٤٤٦).

(٣) «فيض القدير» (٣٠٨/٥).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:١٠٩].

فالعقلاء أولو الألباب يعرفون قدر الدنيا وقدر الآخرة، ويشرون هذه بهذه، ولا يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا، ولا ينطوون فيها ولا في غيرها على فسادٍ أو خيانة أو غدر أو مكر، فيكون ذلك سببًا في زلل أقدامهم أو أقدام غيرهم بعد ثبوتها، وسببًا في فتنة غيرهم وصدهم عن سبيل الله عز وجل، قال سبحانه وتعالى في النهي عن ذلك: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل:٩٢].

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ❁ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ❁ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٤-٩٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، قال ابن كثير: «أي: لا تعتاضوا عن الإيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي: جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه، وحفظ عهده رجاء موعوده، ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ❁ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾؛ أي: يفرغ وينقضي، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدَّر متناهٍ، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾؛ أي: وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول». اهـ.

وفقنا الله وإياكم لما يحب ويرضى، وأرانا الدنيا والآخرة على حقيقتيهما، وجعلنا من المتقين، وثبتنا على الصراط المستقيم.

الدنيا امتحان

ومن أعظم أسباب الثبات: العلم بأن هذه الدنيا الفانية امتحان إلى تلك الآخرة الباقية، وهو موضوع أُدَنْدِن عليه دائمًا، وأُأَكِّد عليه كثيرًا، وأُهِيب بأهل العلم والإيمان، والوعاظ وسائر من يباشر إفادة الناس وتعليمهم، أن يُذَكِّروا به ليل نهار، وأن يعظوا به على الدوام، فإنه وإن كان حقيقة يقينية وقضية بدهية، إلا أن أكثر الناس في غفلة عنه!! والواقع أكبر شاهد، فالناظر في أحوالهم وأفعالهم واهتماماتهم، وتمسكهم الشديد بالدنيا، واستغراقهم في عِمارتها، بما يعجز المتكلم عن وصفه، يجزم أنها عند أكثرهم هي كل شيء؛ هي الحاضر وهي المستقبل، ولا قدر للآخرة في قلوبهم، وكأنهم من شدة الغفلة نيام أو سكارى، إلا من رحم ربي، فاللهـم سلِّم سلِّم!

فيا عبد الله، اعلم أن الدنيا مهما كانت في كثرة ملذاتها، وكثرة متاعها، وحلو ما فيها من شهوات، من نساء وبنين وذهب وفضة وقصور ومراكب وسائر المتاع، ومهما ملكت منها، فإن هذا كله قد جعله الله لعباده في هذه الدار امتحانًا، وابتلاهم به لينظر مَنْ يعبده ويعمل بطاعته، ومَنْ يأبى ويعمل بمعصيته.

قال تعالى: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك:١-٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف:٧-٨].

فاجعل كلام الله عز وجل هذا منك على بال، ولا يصدنك عنه صاد، ولا تغتر بكثرة الغافلين عنه، فتخيب وتخسر.

قال ابن سعدي: «يخبر تعالى أنه جعل جميع ما على وجه الأرض، من مآكل

لذيذة ومشارب ومساكن طيبة، وأشجار وأنهار وزروع وثمار، ومناظر بهيجة ورياض أنيقة، وأصوات شجية وصور مليحة، وذهب وفضة وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار فتنة واختبارًا، ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات فانية مضمحلة وزائلة منقضية، وستعود الأرض صعيدًا جرزًا، قد ذهبت لذاتها وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها.

هذه حقيقة الدنيا، قد جلّاها الله لنا كأنها رَأْيُ عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورغّبنا في دار يدوم نعيمها ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاغترّ بزخرف الدنيا وزينتها مَنْ نظر إلى ظاهر الدنيا دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم ولا يهتمون لمعرفته، بل همهم تناول الشهوات من أي وجه حصلت وعلى أي حالة اتفقت، فهؤلاء إذا حضر أحدَهم الموتُ قلق لخراب ذاته وفوات لذاته، لا لما قدمت يداه من التفريط والسيئات.

وأما من نظر إلى باطن الدنيا وعلم المقصود منها ومنه، فإنه تناول منها ما يستعين به على ما خُلِقَ له، وانتهز الفرصة في عمره الشريف، فجعل الدنيا منزل عبور لا محل حبور، وشُقَّة سفر لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه وتنفيذ أوامره وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا حين نظر المغترّ إلى ظاهرها، وعمل لآخرته حين عمل البطال لدنياه، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين!!». اهـ.

وقال الشنقيطي[1]: «ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خُلِق من

(١) «أضواء البيان» (٣/١١).

أجلها هي أن يُبْتَلى (أي: يُختبر) بإحسان العمل، فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار». اهـ.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»(١).

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه:١٣١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»(٢).

قال الحافظ(٣): «قوله: (حفت)، من الحِفاف، وهو ما يحيط بالشيء حتى لا يُتوصَّل إليه إلا بتخطيه، فالجنة لا يُتوصَّل إليها إلا بقطع مفاوز المكاره، والنار لا يُنجَى منها إلا بترك الشهوات».

ولابن عبد القوي(٤):

فما داركم هذه بدار إقامةٍ ... ولكنها دار ابتِلًا وتَزَوُّدِ
أَمَا جاءكم من ربكم وتزودوا ... فما عذرُ مَنْ وافاهُ غيرَ مُزَوَّدِ
وما هذه الأيام إلا مراحلٌ ... تُقَرِّبُ من دار اللِّقَا كلَّ مُبْعَدِ

وأما قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فاعلم أن العمل لا يقبل حتى يستوفي شروطًا ثلاثة:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) وغيره.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٢٢) وغيره.

(٣) «الفتح» (١١/٣٢٠-٣٢١).

(٤) «عقد الفرائد وكنز الفوائد» (أول كتاب الجنائز).

الأول: الإيمان. وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر؛ خيره وشره، حلوه ومره، وبأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠].

وقال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤].

وقال الله تعالى في عمل غير المؤمن: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

وقال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم:١٨].

الشرط الثاني: الإخلاص.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[1].

وعن أبي أُمامةَ الباهلي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال:

---

(١) متفق عليه.

أَرأيتَ رجلًا غَزَا يَلتمِسُ الأجرَ والذِّكْرَ، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ». فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ». ثم قال:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ»(١).

والإخلاص ـ كما قال ابن القيم(٢) ـ: «تصفية العمل من كل شَوْبٍ؛ أي: لا يُمَازِجُ عملَه ما يَشُوبُهُ من شوائب إرادات النفس، إما طلب التَّزَيُّنِ في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عَقْدُ مُتَفَرِّقاتها هو: إرادة ما سوى الله بعمله، كائنًا ما كان».

الشرط الثالث: المتابعة للنبي ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وقال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

وقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

---

(١) أخرجه النسائي (٦/٢٥) وغيره، وجود إسناده الحافظ في «الفتح» (٦/٢٨)، والمنذري في «الترغيب» (١/٥٥)، وأقره الألباني.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٩٢).

قال المُعَلِّمي[1]: «فعلى المؤمن أن يتأدب مع الأحاديث الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما لو كان بحضرته صلى الله عليه وآله وسلم، فانظر يا مسكين كيف حالك في هذا الواجب؟!».

وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2].

قال النووي[3]: «قال أهل العربية: الرد هنا بمعنى المردود، ومعناه: فهو باطل غير مُعْتَدٍّ به، وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كَلِمه ﷺ، فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات».

قال: «وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات، وإشاعة الاستدلال به».

وقال المُعَلِّمِي في تقريظ كتاب «فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد»[4]: «قد أكثر العارفون بالإسلام المخلصون له من تقرير أن كل ما وقع فيه المسلمون من الضعف والخَوَر والتخاذل، وغير ذلك من وجوه الانحطاط، إنما كان لبعدهم عن حقيقة الإسلام، وأرى أن ذلك يرجع إلى أمور:

الأول: التباس ما ليس من الدين بما هو منه.

الثاني: ضعف اليقين بما هو من الدين.

الثالث: عدم العمل بأحكام الدين.

وأرى أن معرفة الآداب النبوية الصحيحة، في العبادات والمعاملات، والإقامة والسفر، والمعاشرة والوحدة، والحركة والسكون، واليقظة والنوم، والأكل

---

(١) «آثار المعلمي» (٤/٩٢).

(٢) متفق عليه.

(٣) «شرح مسلم» (١٢/١٦).

(٤) (١/٨-٩).

والشرب، والكلام والصمت، وغير ذلك مما يعرض للإنسان في حياته، مع تحري العمل بها كما يتيسر، هو الدواء الوحيد لتلك الأمراض، فإن كثيرًا من تلك الآداب سهلٌ على النفس، فإذا عمل الإنسان بما يسهل عليه منها، تاركًا لما يخالفها، لم يلبث إن شاء الله تعالى أن يرغب في الازدياد، فعسى أن لا تمضي عليه مدة إلا وقد أصبح قدوة لغيره في ذلك.

وبالاهتداء بذلك الهَدي القويم، والتخلق بذلك الخُلُق العظيم ـ ولو إلى حدٍّ ما ـ يستنير القلب، وينشرح الصدر، وتطمئن النفس، فيرسخ اليقين، ويصلح العمل، وإذا كثر السالكون في هذا السبيل لم تلبث تلك الأمراض أن تزول إن شاء الله».

قال: «ومن أبسط مجموعات كتب السنة في الأدب النبوي كتاب «الأدب المفرد» للإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله، والإمام البخاري كالشمس في رابعة النهار شهرة، وإلى مؤلفاته المنتهى في الجودة والصحة، وكتابه هذا ـ أعني «الأدب المفرد» ـ هو بعد كتابه «الجامع الصحيح» أولى كتبه بأن يَعتني به من يريد اتباع السنة، فإنه جمع فأوعى، مع التحري والتوقي والتنبيه على الدقائق». اهـ.

وقد جمع الله عز وجل هذه الشروط الثلاثة في قوله: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩].

أما «الإخلاص»، ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ ﴾، فإرادة الآخرة: هي صلاح التوجه والقصد، وهو الإخلاص.

وأما «المتابعة»، ففي قوله تعالى: ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾.

قال ابن كثير[1]: «أي طلب ذلك من طريقه، وهو متابعة الرسول ﷺ».

وأما «الإيمان»، ففي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾.

---

(١) «تفسيره» (٣/٣٣).

قال الشنقيطي[1]: «في الآية الدليل على أن الأعمال الصالحة لا تنفع إلا مع الإيمان بالله، لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة، لأنه شَرَطَ في ذلك قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾».

وذكر الله عز وجل شرطي «الإخلاص» و«المتابعة» في قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال ابن كثير[2]: «﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾؛ ما كان موافقًا لشرع الله. ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، وهو الذي يُراد به وجهُ الله وحده لا شريك له، وهذان رُكْنا العمل المُتقَبَّل: لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ». اهـ.

قلت: وبهذين الشرطين فسر العلماء «العمل الحسن» في مثل قول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

قال ابن كثير[3]: «قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾؛ أي: ليختبركم، ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولم يقل: أكثر عملًا، بل ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين حَبِط وبَطَل». اهـ.

قال شيخ الإسلام[4]: «كان أئمة السلف يجمعون هذين الأصلين، كقول

(١) «أضواء البيان» (٣/٤٩٢).
(٢) «تفسيره» (٣/١٠٨).
(٣) «تفسير» (٢/٤٣٨).
(٤) «مجموع الفتاوى» (٢٨/١٧٧).

الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧، والملك:٢]، قال: أخلصه وأصوبه. فقيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة[(١)].

هذا، وقد خرج علينا في هذا الزمان شرذمة ضالة مضلة من المتمسلمين المنافقين المحرّفين للدين، فنسفوا كل هذه الشروط المتفق عليها، ولم يعتبروا واحدًا منها شرطًا لقبول عملِ مَنْ عظَّموه أو أحبَوه، أو أُعجبوا بفعاله ورضوا بخصاله، ولو كان يهوديًّا أو نصرانيًّا، ولو كان عدوًّا لله ورسوله وللمؤمنين، وصاروا يترحمون عليه إذا مات أو قتل ويستغفرون له، بحجة أنه قتل ظلمًا، وقد يصلون عليه صلاة جنازة المسلمين، بل وقد يَعُدّه بعضهم شهيدًا مستحقًّا للجنة، وإلا كفر برب العالمين! وارتد عن الدين! إذ لم يرحم اللهُ صاحبَه ولم يدخله جنته!!

وبعد ذلك يحسبون أنهم مسلمون! ويظنون أنهم مهتدون! بل ويضلِّلون من خالفهم! ويسفِّهون من عاتبهم!

وأعظم من هذا أن يخرج علينا من مشايخ السوء من يحاول تبرير أقوالهم وتصحيح فعالهم!!

فجاؤوا بما يضحك منه أطفال العقيدة، وصبيان السُّنة، الذين تربَّوْا على العلم والاتباع والمواجهة والعزة، ولم يتربَّوْا على الجهل والابتداع والهزيمة والذِّلة.

فإلى الله المشتكى! وحسبنا الله ونعم الوكيل!

---

(١) ثم قرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]. كذا في «مدارج السالكين» (٨٩/١).

قال النووي[1]: «وأما الصلاة على الكافر والدعاء له بالمغفرة فحرام بنص القرآن والإجماع».

وقال شيخ الإسلام[2]: «الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع».

وقال القَرَافي[3]: «اعلم أن الدعاء الذي هو الطلب من الله تعالى له حكم باعتبار ذاته من حيث هو طلب من الله تعالى، وهو الندب، لاشتمال ذاته على خضوع العبد لربه وإظهار ذلته وافتقاره إلى مولاه، فهذا ونحوه مأمور به، وقد يَعرِض له من متعلقاته ما يوجبه أو يحرمه، والتحريم قد ينتهي للكفر، وقد لا ينتهي، فالذي ينتهي للكفر أربعة أقسام:

القسم الأول: أن يطلب الداعي نَفْيَ ما دل السمع القاطع من الكتاب والسنة على ثبوته، وله أمثلة:

الأول: أن يقول: اللهم لا تعذب من كفر بك أو اغفر له. وقد دلت القواطع السمعية على تعذيب كل واحد ممن مات كافرًا بالله تعالى، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء:٤٨ و١١٦]، وغير ذلك من النصوص، فيكون ذلك كفرًا، لأنه طلبٌ لتكذيب الله تعالى فيما أخبر به، وطلبُ ذلك كفر، فهذا الدعاء كفر.

الثاني: أن يقول اللهم لا تخلد فلانًا الكافر في النار، وقد دلت النصوص القاطعة على تخليد كل واحد من الكفار في النار، فيكون الداعي طالبًا لتكذيب خبر الله تعالى، فيكون دعاؤه كفرًا».

OOOOO

(١) «المجموع» (١٤٤/٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤٨٩/١٢).

(٣) «الفروق» (٢٥٩/٤-٢٦٠)، ولكلامه بقية.

توقي الفتن

ومن أسباب الثبات: تَوَقِّي الفتن[1]، والهروب منها، وعدم الدخول فيها، وترك التعرض لها، وإذا حصل وواجهته تغلب عليها بالصبر العظيم، والعلم واليقين، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

وقد انتشرت الفتن في هذا الزمان أيما انتشار، فتنة الشهوات، وفتنة الشبهات، وفتنة الابتلاءات، وعمت البلوى، وانتشرت العَدوى، وامتُحن المؤمنون، واختلط الحرام بالحلال، والتبس الحق بالضلال، وكثرت الفِرَق والطوائف والأحزاب، وأصبح من العسير على الكثير تمييز المحق منها من المبطل، والطامة الكبرى أنها في ظاهرها تنتسب إلى الإسلام، وتتكلم بالسنة والقرآن، ومع هذا تضم فيها جمهرة من المبتدعين والضَّلاليّين، بل والكفرة والمنافقين، وتدعي أكثرها أنها تنصر الإسلام! وهي في العلن أو الخفاء تحاربه، وتصد عنه، وتفتن أهله!

فعلى المسلم في هذه الحال أن يتقي الله ويصبر على الحق ويثبت عليه، ويأخذ ما يعرف ويترك ما ينكر، ويتقي الشبهات، ويبتعد عن الفتن بالكلية، وإلا وقع في الحرام والطغيان، والإثم والعدوان، فعن الشَّعبي، عن النعمان بن بشير، قال: سمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وأهوى النعمان بإصبعيه إلى أذنيه ـ:

«إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ». الحديث[2].

---

(١) الفتنة لها عدة معانٍ، منها: الابتلاء والامتحان، والصد عن السبيل والإضلال، والقتل والقتال، والشرك والكفر والنفاق، والوقوع في المعاصي، واشتباه الحق بالباطل، واختلاف الناس، واضطراب الآراء، وغير ذلك، قال ابن حجر: «ويعرف المراد حيثما ورد بالسياق والقرائن». «الفتح» (١١/١٧٧).

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم، واللفظ الثاني للبخاري.

وفي لفظ: «فَمَنْ تَرَكَ مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ كَانَ لِمَا اسْتَبَانَ أَتْرَكَ، وَمَنِ اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشُكُّ فِيهِ مِنَ الإِثْمِ أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ، وَالمَعَاصِي حِمَى اللَّهِ، مَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ».

ومن الفتن التي فتكت بالأمة فتنة الانحرافات في العقيدة والاختلافات في أصول الإيمان، وما نتج عنها من فرق ضالة، كالخوارج والمرجئة وغيرهما.

ومنها فتنة التعصب المذهبي، وفتنة أئمة الجَور، ودعاة الضلالة، ومشايخ السوء، وعلماء السلطان، فكم ضل بسبب هؤلاء من بشر!! وكم زاغ من مسلم وشر!!

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»(١).

صدق رسول الله ﷺ، فإنا والله قد صرنا في هذا الزمان لا نكاد نحصي أعداد الفرق الضالة، فضلًا عن مذاهبها وأقوالها، وأصولها وفروعها، حتى إن بعضها ـ وهي تنتسب إلى الإسلام! ـ تعتقد في الله سبحانه وتقول فيه أقوالًا تقشعر منها الجلود، ولم تقلها النصارى من قبل ولا اليهود!!!

ولَبعضُها أشد مما قال الله فيه: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم:٨٩-٩٠].

تعالى الله عن أقوال هؤلاء وهؤلاء علوًّا كبيرًا.

وهاكَ مثالًا لتلك الأقوال، قال شيخ الإسلام(٢): «وقد علم المسلمون واليهود والنصارى بالاضطرار من دين المرسلين، أن من قال عن أحد من البشر: إنه جزء من الله. فإنه كافر في جميع الملل، إذ النصارى لم تقل هذا ـ وإن كان

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢٧/٢-١٢٨).

قولها من أعظم الكفر ـ، لم يقل أحد: إن عين المخلوقات هي جزء الخالق، ولا إن الخالق هو المخلوق، ولا الحق المُنَزَّه هو الخَلْق المُشَبَّه».

فهذا شاهد لقول بعضهم، وهو يغنينا عن سرد ما يشبهه من أقوالهم، إذ هو ليس مقصدنا هنا، ولا هذا موضعه.

ولا إخال فرقةً تدين بمثل هذه الأقوال تبقى في دائرة الثلاث والسبعين فرقة!!

واعلم أن الفتن هي أعظم ما يضعف الإيمان، ويزلزل الإيقان، ويدع الحليم حيران، إلا من رحم الله تعالى، ممن هداهم وحفظ قلوبهم من الزيغ والضلال، وهم الراسخون في العلم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۞ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٧-٨].

وهم المعنيون بقول النبي ﷺ: «وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ»(١).

وهم الموافقون المطيعون لأمره ﷺ دون المخالفين له، كما قال الله سبحانه: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣].

هؤلاء هم الثابتون وهم المحفوظون في زمن الفتن، هم ومن اتبعهم على الحق، وتمسك بغرزهم، واتبع سبيلهم، واعتصم بما اعتصموا به من كتاب ربهم عز وجل، وسنة نبيهم ﷺ.

---

(١) سيأتي بعد قليل.

هذا، إذا صدوا الفتنة وحاربوها، وبينوا للناس الحق، وأمروا بالمعروف، ونهَوْا عن المنكر، ولم يسكتوا على المعاصي، ولم يصمتوا عما يقع في الناس من الشبهات، وإلا أصابهم ما أصاب الظالمين من العقوبات.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٢٥].

قال ابن عاشور: «فعلى عقلاء الأقوام وأصحاب الأحلام منهم إذا رأَوْا دبيب الفساد في عامتهم أن يبادروا للسعي إلى بيان ما حل بالناس من الضلال في نفوسهم، وأن يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه، وأن يمنعوهم منه بما أُوتوه من الموعظة والسلطان، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتى يرتدعوا، فإن هم تركوا ذلك وتوانَوْا فيه لم يلبث الفساد أن يسري في النفوس وينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره، حتى يعم أو يكاد، فيعسر اقتلاعه من النفوس، وذلك الاختلال يُفسد على الصالحين صلاحهم وينكد عيشهم، على الرغم من صلاحهم واستقامتهم، فظهر أن الفتنة إذا حلت بقوم لا تصيب الظالم خاصة بل تعمه والصالحَ، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكل، لأن أضرار حلولها تصيب جميعهم».

وقال ابن سعدي: «﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾، بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغيَّر، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره، وتقوى[١] هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يُمَكَّنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن». اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٥].

---

(١) يعني: اتقاء.

وقال سبحانه: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۞ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود:١١٦-١١٧].

وفي الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»(١).

وفيه: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ»(٢).

وفيه: عن زينبَ بنت جحش، زوج النبي ﷺ قالت: خرج رسول الله ﷺ يومًا فَزِعًا مُحْمَرًّا وجهه، يقول:

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»، وحَلَّق بإصبعه الإبهام، والتي تليها، قالت فقلت: يا رسول الله، أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟! قال: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»(٣).

وفيه: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ، فَلَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا»(٤).

ومن أجل هذه الآيات وهذه الأحاديث وما في معناها لم أتعرض في هذا الكتاب ولا في هذا الفصل خاصة لذكر العزلة، لأن شرح ما يصح منها مما لا يصح يطول، وقد يلتبس الأمر على كثير من الناس، ممن لا حظًّا وافرًا لهم في

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٩) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) متفق عليه.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٣٣٩) وغيره، وحسنه الألباني.

العلم، هذا سبب.

وسبب آخر أننا في زمن جهاد واستشهاد، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، فلا أفتح ـ بكلام مختصر ـ على بعض الناس بابًا من الكسل أو الجبن أو الهروب مما أوجبه الله تعالى عليهم أو ندبهم إليه.

وأيضًا، فإن العزلة قد تكون هي نفسها فتنة أو مدخلًا للفتنة إذا اخْتِيرتْ في غير وقتها.

وما على مَن التبست عليه الأمور، وكان لا يعلم ما الواجب عليه، إلا شيء واحد، ألا وهو سؤال العلماء: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣، والأنبياء:٧].

مبادرة الفتن بالأعمال

وعلى المؤمن أن يبادر بالأعمال الصالحة قبل وقوع الفتن، ويسارع في الخيرات قبل انقضاء الزمن، وهذا أيضًا من أعظم أسباب الثبات، فإن الأعمال الصالحة تجلب أمثالها، والتقوى تقي أهلها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»(١).

وعنه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوِ الدُّخَانَ، أَوِ الدَّجَّالَ، أَوِ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ»(٢).

وعن عابس الغِفاري رضي الله عنه قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ، وَكَثْرَةُ الشُّرَطِ، وَبَيْعُ الْحُكْمِ(٣)،

---

(١) أخرجه مسلم (١١٨) وغيره.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٤٧) وغيره.

(٣) أي: أَخْذُ الرشوة عليه.

واسْتِخْفَافٌ بِالدَّمِ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَنَشْؤٌ[١] يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ، يُقَدِّمُونَ أَحَدَهُمْ لِيُغَنِّيَهُمْ وَإِنْ كَانَ أَقَلَّهُمْ فِقْهًا»[٢].

قال الصنعاني[٣]: «اعلم أن الأمر بالمبادرة بالأعمال لهذه الأمور لأنها إذا حدثت عسرت معها أعمال الخير، أو كان وقوعها سببًا لعدم قبول الأعمال، ولأنه يحال بين المرء وبين ما يريده من الخير بسبب هذه الأعمال عقوبة للعباد». اهـ.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا عند عمر، فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأَسكتَ القوم، فقلت: أنا. قال: أنت لله أبوك! قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا[٤]، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا[٥]، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ».

قال حذيفة: وحدثته أن بينك وبينها بابًا مغلقًا يوشك أن يُكسر. قال عمر: أكسرًا لا أبا لك؟ فلو أنه فُتِح لعله كان يعاد. قلت: لا، بل يكسر. وحدثته

---

(١) أي: صغار حدثاء الأسنان، مفردها ناشئ.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣٦/١٨/ رقم ٦٠، وفي مواضع أُخَر) وغيرُه. وهو في «السلسلة الصحيحة» (٩٧٩).

(٣) «التنوير» (٥٢٨/٤-٥٢٩).

(٤) مكدرًا مغبرًا، فلون هذا القلب أسود فيه يسير من شبه البياض، وهو الكُدرة والغُبرة.

(٥) مقلوبًا منكوسًا منحرفًا، فهو مع انقلابه إلى أسفل مائل منحرف، وهو أمنع ما يكون في حفظ الماء، وأشد ما يكون في حفظ الهواء، فذاك القلب مثل هذا الكوز، ليس فيه خير، وإنما الهوى والشر.

أن ذلك الباب رجل يُقتل أو يموت. حديثًا ليس بالأغاليط[١].

وفي لفظ: عن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا عند عمر، فقال: أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة كما قال؟ قال: فقلت: أنا. قال: إنك لجريء، وكيف قال؟ قال: قلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَنَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ يُكَفِّرُهَا الصِّيَامُ، وَالصَّلَاةُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ».

فقال عمر: ليس هذا أريد، إنما أريد التي تموج كموج البحر. قال: فقلت: ما لك ولها، يا أمير المؤمنين؟! إن بينك وبينها بابًا مغلقًا. قال: أفيكسر الباب أم يفتح؟ قال: قلت: لا، بل يكسر. قال: ذلك أحرى أن لا يغلق أبدًا. قال: فقلنا لحذيفة: هل كان عمر يعلم مَنِ الباب؟ قال: نعم، كما يعلم أن دون غد الليلة، إني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط. قال: فهبنا أن نسأل حذيفة: مَنِ الباب؟ فقلنا لمسروق: سَلْهُ. فسأله، فقال: عمر.

قال النووي: «وقوله (فتنة الرجل في أهله وجاره تكفرها الصلاة والصيام والصدقة)، قال أهل اللغة: أصل الفتنة في كلام العرب: الابتلاء والامتحان والاختبار. قال القاضي: ثم صارت في عرف الكلام لكل أمر كشفه الاختبار عن سوء. قال أبو زيد: فُتِن الرجل يُفتن فتونًا، إذا وقع في الفتنة، وتحول من حال حسنة إلى سيئة. وفتنة الرجل في أهله وماله وولده ضروب من فرط محبته لهم، وشحه عليهم، وشغله بهم عن كثير من الخير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن:١٥]. أو لتفريطه بما يلزم من القيام بحقوقهم وتأديبهم وتعليمهم، فإنه راع لهم ومسؤول عن رعيته. وكذلك فتنة الرجل في جاره من هذا، فهذه كلها فتن تقتضي المحاسبة، ومنها ذنوب يرجى تكفيرها بالحسنات،

(١) أخرجه مسلم (١٤٤)، وهو في «صحيح البخاري» بنحوه، دون ذكر عرض الفتن، ودون ذكر القلبين.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]».

وقال المنذري[١]: «ومعنى الحديث: أن القلب إذا افتُتِن وخرجت منه حرمة المعاصي والمنكرات خرج منه نور الإيمان، كما يخرج الماء من الكوز إذا مال أو انتكس». اهـ.

وعن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة، والناس مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلست إليه، فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلًا، فمنا من يصلح خِباءه، ومنا من يَنْتَضِل[٢]، ومنا من هو في جَشَره[٣]، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاةَ جامعةً، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال:

«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ». الحديث[٤].

وعن كعب قال: لَتُحَبَّبَنَّ إليكم الدنيا حتى تتعبدوا لها ولأهلها، وليأتينكم زمان تُكره فيه الموعظة، وحتى يختفي المؤمن بإيمانه كما يختفي الفاجر بفجوره،

(١) «الترغيب» (٣/٢٣١).

(٢) هو من المناضلة وهي المراماة بالنُّشاب. «نووي».

(٣) هي الدواب التي ترعى وتبيت مكانها. «نووي».

(٤) أخرجه مسلم وغيره.

وحتى يُعَيَّرَ المؤمن بإيمانه كما يُعَيَّرُ الفاجر بفجوره[1].

الاستعاذة بالله من الفتن

ومن أسباب الثبات عند الفتن: التعوذ بالله منها، وهذا بعض ما ورد في ذلك:

أهمها، وهو مأمور به بعد تشهد الصلاة الآخر: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ (وفي رواية: إِذَا فَرَغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشَهُّدِ الْآخِرِ) فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»[2].

ومنها: عن عمرو بن ميمون الأَودي قال: كان سعد يعلم بنيه هؤلاء الكلمات كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة، ويقول: إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ منهن دبر الصلاة:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ»[3].

وعن عبد الله [بن مسعود] رضي الله عنه قال: كان نبي الله ﷺ إذا أمسى قال:

«أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ». (قال: أُرَاهُ قال فيهن): «لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ، [وَالْهَرَمِ]، وَسُوءِ الْكِبَرِ، [وَفِتْنَةِ الدُّنْيَا]، [وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ]، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ».

---

(١) «الزهد» لابن أبي الدنيا (ص ٧٣).

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٣) أخرجه البخاري وغيره.

وإذا أصبح قال ذلك أيضًا: «أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ»(١).

ومن أهمها: عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار، على بغلة له ونحن معه، إذ حادت به فكادت تلقيه. الحديث(٢). وفيه:

ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ». قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار. فقال: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر. قال: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ». قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قال: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ». قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال.

ومنها: حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه:

«اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»(٣).

وقال تعالى حاكيًا عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة:٥].

قال ابن سعدي: «﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا،

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٣) وغيره. والزيادة الثالثة عند ابن حبان (٢/٢٩١/ رقم ٩٥٩ ـ التعليقات الحسان). وأما قول الراوي: (أراه قال فيهن)، فعند مسلم رواية أخرى على الجزم بقولها.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٧) وغيره.

(٣) أخرجه النسائي (١٣٠٥) وغيره، وصححه الألباني.

فيَفتِنونا ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويُفتَنون أيضًا بأنفسهم، فإنهم إذا رأَوْا لهم الغلبة ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفرًا وطغيانًا، ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتك وحكمتك انصرنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا». اهـ.

وقال سبحانه عن كليمه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ * فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [يونس:٨٤-٨٦].

○○○○○

الاطمئنان بأن الدين سينتصر

ومن أعظم أسباب الثبات: الإيمان بأن دين الله سينتصر، وأن المستقبل للإسلام، وأن الرفعة والعزة والغلبة للمؤمنين، فهذا مما يطمئن القلب، ويقوي العزيمة، ويزيد المسلم تمسكًا ورضًى بربه ودينه ونبيه.

وقد كان النبي ﷺ يأخذ بهذا السبب ويستعمله مع أصحابه، فيبشرهم بما سيؤول إليه حال الإسلام والمسلمين، من النصر والظهور والتمكين[١]، لتقوى عزائمهم، وتثبت قلوبهم، وتصبر نفوسهم.

فلا تغرَّنَّك يا عبد الله قوة الباطل وانتشاره وانتصاره، وتمكنه في الأرض، ولا تهولَنَّك سطوته وعدته وكثرة أتباعه، وبالمقابل ضعف المسلمين على كثرتهم أو قلتهم، فإن دين الله عزيز ومنتصر وظاهر، وإنْ ضعف أهلُه، أو نكص أتباعه! المنتسبون إليه، فله ولأتباعه المتمسكين به ولجنده وناصريه العاقبة في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۞ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۞ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٨].

وقال سبحانه: ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر:٤-٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم

(١) كما سيأتي الآن.

مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [غافر:٢١-٢٢].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٦].

فالزم يا عبد الله سبيل الله تعالى، ودينه الحق، واستمسك به، وادْعُ إليه، وانصره، وجاهد في سبيله، واصبر وصابر، ولا تيأس من رَوح الله تعالى، فالدين دين الله عز وجل، وإنه له لحافظ، وإنه له لناصر.

ولا تنتظر رؤية الثمار، ولا تستعجل حصول النتائج، ولا تعلِّق قلبك بذلك، فتقع في اليأس والملل، وتترك الجِدّ والعمل، وتستروح إلى العجز والكسل، فيضعف ثباتك.

قال العليم الحكيم سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر:٧٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد:٤٠].

وعن خباب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال:

«كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢ و٣٨٥٢ و٦٩٤٣) وغيره.

ولا بد للدعوة من ثمار، ولا بد للجهاد من نِتاج، عاجلًا أو آجلًا، وعدًا من الله عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

وقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج:١٥].

قال ابن كثير: «قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدًا ﷺ في الدنيا والآخرة، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾؛ أي: بحبل، ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: سماء بيته، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾، يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة، وغيرهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمدًا من السماء، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه، إن قدر على ذلك.

وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى[1]، وأبلغ في التهكم، فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة». اهـ.

وقال الله سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى

---

(١) واستظهره الشنقيطي أيضًا. وقال: «وحاصل هذا القول: أن الله يقول لحاسديه ﷺ الذين يتربصون به الدوائر، ويظنون أن ربه لن ينصره: موتوا بغيظكم، فهو ناصره لا محالة على رغم أنوفكم».

﴿ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٢-٣٣].

فهذا وعد من الله تعالى بظهور دين الإسلام على جميع الأديان، وقد تحقق ذلك في عهد النبي ﷺ، فظهر الدين على سائر الأديان، وانتصر جند الله على جند الشيطان، واتسعت أرض الإسلام، وحكم وسيطر فيها الدين الحق أكثر من ألف سنة، وسيعود الإسلام قويًّا كما بدأ، وسينصر الله جنده، وسيحكِّم دينه، وسيظهره ويتمُّه أكثر وأكثر، حتى يعم الأرض كلها، مشارقها ومغاربها[1]، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف:٢١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ أن ذلك تامًّا! قال:

«إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ»[2].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ[3]، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ[4]، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ،

(١) كما سيأتي.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٠٧) وغيره.

(٣) يريد بالأحمر والأبيض خزائن كسرى وقيصر، وذلك لأن الغالب على نقود ممالك كسرى الدنانير، والغالب على نقود ممالك قيصر الدراهم. «تُورِبِشْتي».

(٤) السَّنة: القحط والجدب، وهي من الأسماء الغالبة. «طِيبي».

فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ[1]، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا (أو قال: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا)، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[2].

وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»[3].

وعن أبي قَبيل، قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاصي، وسئل: أي المدينتين تفتح أولًا: القسطنطينية أو رُومِيَّةُ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حَلَقٌ، قال: فأخرج منه كتابًا، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولًا: قسطنطينية أو رُومِيَّةُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا». يعني: قسطنطينية[4].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». قال: «فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ»[5].

---

(١) أي: مجتمعهم وموضع سلطانهم ومستقر دعوتهم، وبيضة الدار: وسطها ومعظمها، أراد عدوًّا يستأصلهم ويهلكهم جميعهم. «طِيبي».

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) وغيره.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) وغيره. وهو في «الصحيحة» (رقم ٣).

(٤) أخرجه أحمد (٦٦٤٥) وغيره. وهو في «الصحيحة» (رقم ٤)

(٥) أخرجه مسلم (١٥٦ و١٩٢٣) وغيره.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»[١].

وعن أبي زُرْعَةَ قال: كتب إليّ إسحاق بن راهَوَيْهِ: لا يهولنك الباطل، فإن للباطل جولة ثم يتلاشى[٢].

وعن ابن أبي أسامة قال: حُكي لنا أن أحمد قيل له أيام المحنة: يا أبا عبد الله، أوَلَا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل؟!

قال: كلا، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة، وقلوبنا بعد لازمة للحق[٣].

وقال شيخ الإسلام[٤]: «ومن سنة الله أنه إذا أراد إظهار دينه أقام من يعارضه، فيحق الحق بكلماته، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق».

وقال[٥]: «ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين، وبيان حقيقة أنباء المرسلين، ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين».

وقال[٦]: «والفتنة للإنسان كفتنة الذهب إذا أُدخل كيرَ الامتحان، فإنها تميز جيّده من رديئه، فالحق كالذهب الخالص، كلما امتُحن ازداد جودة، والباطل كالمغشوش المضيء، إذا امتُحن ظهر فساده.

فالدين الحق كلما نظر فيه الناظر، وناظر عنه المناظر، ظهرت له البراهين،

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٤) وغيره.

(٢) مقدمة «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٣٤٢/١).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢٣٨/١١).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٥٧/٢٨).

(٥) «الجواب الصحيح» (٨٥/١).

(٦) «الجواب الصحيح» (٨٨/١-٩٠).

وقوي به اليقين، وازداد به إيمان المؤمنين، وأشرق نوره في صدور العالمين.

والدين الباطل إذا جادل عنه المجادل، ورام أن يقيم عُوده المائل، أقام الله تبارك وتعالى مَنْ يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وتبين أن صاحبه الأحمق كاذب مائق[1]، وظهر فيه من القبح والفساد، والحلول والاتحاد، والتناقض والإلحاد، والكفر والضلال، والجهل والمحال، ما يظهر به لعموم الرجال، أن أهله من أضل الضُّلال، حتى يظهر فيه من الفساد ما لم يكن يعرفه أكثر العباد، ويتنبه بذلك من سِنة الرقاد، من كان لا يميز الغَي من الرشاد، ويحيا بالعلم والإيمان من كان ميت القلب لا يعرف معروف الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولا ينكر منكر المغضوب عليهم والضالين». اهـ.

فتمسك يا عبد الله بإسلامك، واهتم بأمر دينك، ولا تجعل جل همك نفسك ومالك وولدك وأهلك وأرزاقهم! بل اجعل همك الدين، واسع إلى نصرته وتأييده والدعوة إليه.

وإياك أن تستنكف عن ذلك، وتنكُص على عقِبَيْك، بحجج واهية، وشبهات ضعيفة، تمليها عليك نفسك وهواك، ويزينها لك شياطين الإنس والجن، فتعتذر بها أمام الناس، وأنت تعلم أن الحق خلافها، وإن التبرير بالتقصير والضعف أو التزام الصمت لأَولى لك وأنجى.

ومن هذه الأعذار ادعاؤك أنك إنما تعتزل الفتنة! وهو آخر ما يَعتذر به من يخذل الحق وأهله! ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾!

واللهُ عز وجل مطلع على سرك وقلبك وأعلم بعذرك، وأعلم سبحانه بما هو فتنة يجب أن تعتزلها، وبما هو حق يجب أن تتبعه وتنصر أهله.

(١) أي: هالك حُمْقًا.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

وقال ابن مفلح(١): «قال [ابن عَقيل] في «الفنون»: من عجيب ما نَقَدْتُ من أحوال الناس: كثرة ما ناحوا على خراب الديار، وموت الأقارب والأسلاف، والتحسر على الأرزاق، بذَمِّ الزمان وأهله، وذِكر نكد العيش فيه، وقد رأَوْا من انهدام الإسلام، وشعث الأديان، وموت السنن، وظهور البدع، وارتكاب المعاصي، وتَقَضِّي العمر في الفارغ الذي لا يُجدي، والقبيح الذي يُوبق ويؤذي، فلا أجد منهم من ناح على دينه، ولا بكى على فارط عمره، ولا أَسِيَ على فائت دهره، وما أرى لذلك سببًا إلا قلة مبالاتهم بالأديان، وعِظَم الدنيا في عيونهم، ضد ما كان عليه السلف الصالح، يرضَوْن بالبلاغ، وينوحون على الدين». اهـ.

وأنتم، معاشرَ الدعاة والوعاظ والخطباء، يا أهل العلم والإيمان، يا أنصار الشريعة، يا حاملي لواء السنة المحمدية، احفظوا ما تقدم من الآيات والأحاديث، وأشيعوها بين الناس وانشروها، وطمئنوهم إلى وعد ربهم تبارك وتعالى، ووعد رسوله ﷺ، وكرروا ذلك عليهم، وعلموه أهلكم وكلَّ من يلوذ بكم، وبشِّروهم به، فإن من حولكم من يشككهم في دينهم، ويُيَئِّسهم من ظهوره، ويقنطهم من عودة عزته، ويُفْقِدهم الأمل في قيام دولته، فانصروا دين الله عز وجل، وذُبّوا عن شريعته، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج:٤٠].

---

(١) «الآداب الشرعية» (٢/٢٤٤-٢٤٥ و٣/٢٤٠).

وما أشرف مقصد شيخنا الألباني لما افتتح كتابه «السلسلة الصحيحة» بهذا الموضوع! تحت عنوان: «المستقبل للإسلام»، وهو مقتبس من اسم الكتاب المشهور: «المستقبل لهذا الدين».

وأول أحاديث »الصحيحة» هو الحديث المتقدم: ««لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ».

○○○○○

اقتراب الآخرة

ومن أعظم أسباب الثبات: أن تعلم أن الآخرة قادمة لا محالة، وأنها قريبة وإن رآها الناس بعيدة.

فمن عرف قدر الدنيا بالنسبة للآخرة وقارن بين الدارين ـ كما قدمنا ـ، ثم أيقن بقرب الآخرة ومجيء الجنة والنار، استمسك بالدين وثبت على التقوى، وصبر على الطاعات، وصبر عن المعاصي، وواجه الفِتن بكل قوة نَفْس وثباتِ قلب، رغبة فيما عند الله، واطمئنانًا لوعده، وهذا بقدر ما حصّل من معرفة ذلك والإيمان به، وبقدر يقينه به، وما باشر قلبه منه.

قال الله عز وجل: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: دنا حساب الناس على أعمالهم التي عملوها في دنياهم، ونعمهم التي أنعمها عليهم فيها في أبدانهم وأجسامهم ومطاعمهم ومشاربهم وملابسهم وغير ذلك من نعمه عندهم، ومسألتُه إياهم: ماذا عملوا فيها؟ وهل أطاعوه فيها فانتهَوا إلى أمره ونهيه في جميعها، أم عصَوه فخالفوا أمره فيها؟ ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾؛ يقول: وهم في الدنيا عما الله فاعل بهم من ذلك يوم القيامة، وعن دنوّ محاسبته إياهم منهم، واقترابه لهم، في سهو وغفلة، وقد أعرضوا عن ذلك فتركوا الفكر فيه والاستعداد له والتأهب، جهلًا منهم بما هم لاقوه عند ذلك من عظيم البلاء وشديد الأهوال».

وقال سبحانه: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر:١].

قال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾: دنت الساعة التي تقوم فيها القيامة، وقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾؛ افتعلت، من القرب، وهذا من الله تعالى ذكره إنذار لعباده بدنوّ القيامة وقرب فناء الدنيا، وأمر لهم بالاستعداد

لأهوال القيامة قبل هجومها عليهم، وهم عنها في غفلة ساهون».

وقال الله تعالى: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم:٥٧-٥٨].

الآزفة: أي القريبة، وهي القيامة، فهذا اسم لها هو أوضح شيء يدل على اقترابها.

وقال تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل:١].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبرًا بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة، كقوله: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾، وقال: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾. وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾؛ أي: قرب ما تباعد ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾». اهـ.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج:٦-٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الزخرف:٦٦].

وقال سبحانه: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ: ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام:١٥٨].

وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ، وَلَا يَطْوِيَانِهِ.

وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ[1] فَلَا يَطْعَمُهُ.
وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ[2] فَلَا يَسْقِي فِيهِ.
وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا»[3].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ (أو كهاتين)»، وقَرَنَ بين السبابة والوسطى[4].

ولابن القيم:

ولـو تبصـر الدنيـا وراء سـتورها ... رأيـت خيـالًا في منـامٍ سيُصْـرَمُ
كحُلمٍ بطَيْفٍ زار في النوم وانقضى الْـ ... ـمنامُ وراح الطيف والصَّبُّ مُغـرمُ
وظِلٍّ أرتـه الشـمسُ عنـد طلوعهـا ... سَيَقلِصُ في وقـت الـزوال ويُفصَـمُ
كـذا هـذه الدنيـا كـأحلام نـائمٍ ... ومِـن بعـدها دار القضـاء سَـتَقدَمُ
فجُزهـا ممـرًّا لا مقـرًّا وكـن بهـا ... غريبًا تعـش فيهـا حميـدًا وتسـلَمُ
فيا عجبا كم مصرع وعظت بـهِ ... بنيها ولكن عن مصـارعها عَمُـوا
وأعجب ما في العبد رؤية هـذه الْـ ... ـعظائم والمغـرور فيهـا مُتَـيَّمُ
ومـا ذاك إلا أنَّ خمـرة حُبِّهـا ... لَتَسْلِبُ عقـل المـرء منـه وَتَصْـلِمُ
وأعجَبُ مـن ذا أنَّ أحبـابها الأُلى ... تـُهـينُ وللأعـدا تُـراعي وتُكـرِمُ
ألا ليت شـعري هـل أبيـتَنَّ ليـلةً ... على حـذر منهـا وأمـريَ مُحْكَـمُ

---

(١) هي ذات الدَّرّ من النُّوق. «فتح».
(٢) أي: يطينه ويصلحه. «نهاية».
(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٦، وفي مواضع أُخَر)، ومسلم (١٥٧)، مختصرًا، وغيرهما.
(٤) أخرجه البخاري (٥٣٠١، وفي مواضع أُخَر)، ومسلم (٢٩٥٠)، وغيرهما.

ذكر الموت

ومن أسباب الثبات: الإكثار من ذكر الموت، فإن في ذكره ردعًا عن المعاصي، وحثًّا على التوبة، وتزهيدًا في العاجلة وحطامها، وتذكيرًا بالآخرة وثوابها، ووازعًا إلى الطاعة، وتنشيطًا للجد في العلم والعمل، وتوديعًا للكسل، وتليينًا للقلب، وعلاجًا لقسوته، وقمعًا لهوى النفس، لأنه يهدم اللذات المانعة من كل هذا، كما وصفه النبي ﷺ بذلك، وما أجمعه من وصف! فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ، فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ قَطُّ وَهُوَ فِي ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْهِ، وَلَا ذَكَرَهُ وَهُوَ فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ»(١).

ومن المعلوم أن الموت قد يأتي بغتة، وقد يقع فجأة، ولعله على الأبواب، وقد قال الله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٥].

ومن أبلغ ما قيل في ذلك: ما صوره الله عز وجل لعباده، وقرّبه إليهم، ووعظهم به، وذلك قوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۞ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ۞ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۞ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۞ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ [القيامة:٢٦-٣٠].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اذْكُرِ الْمَوْتَ فِي صَلاتِكَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةً غَيْرَهَا، وَإِيَّاكَ وَكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فجاءه رجل

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٥٦٢ - موارد) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (١٧٥٥ - مختصره). وهو في «الصحيحة» (٢٨٣٩).

من الأنصار، فسلم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا». قال: فأي المؤمنين أَكْيَس؟ قال: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ»(١).

قال المناوي(٢): «إذا أكثر الإنسان ذكر الموت بقلبه انقشعت الظلمة، واستنار الصدر بنور اليقين، فأبصر الموت، وهو عاقبة الأمر، فرآه قاطعًا لكل لذة، حائلًا بينه وبين كل أمنية، ورآها أنفاسًا معدودة، وأوقاتًا محدودة، لا يدري متى ينفد العدد، وينقضي المدد، فركبته أهوال الخطر، وأذهلته العبر، وتردد بين الخوف والرجاء، فانكسر قلبه، وخمدت نفسه، وذبلت نار شهوته، فزهد في أمنيته، ورضي بأدني عيشته». اهـ.

واستعن على ذكر الموت برؤية الجنائز والنعوش وزيارة القبور، فإن فيها عِبرة تبعث العَبرة، وذكرى توجب الرقة، فعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«عُودُوا الْمَرِيضَ، وَاتَّبِعُوا الْجَنَائِزَ، تُذَكِّرْكُمُ الْآخِرَةَ»(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، أَلَا فَزُورُوهَا، فَإِنَّهُ يَرِقُّ الْقَلْبُ، وَتَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَتُذْكَرُ الْآخِرَةُ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا»(٤).

وشيع الحسن جنازة، فجلس على شفير القبر فقال: إن أمرًا هذا آخره لحقيق أن يُزهد في أوله، وإن أمرًا هذا أوله لحقيق أن يخاف آخره(٥).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩) وغيره، وهو حديث حسن بطرقه، كما في «الصحيحة» (٣٧٣/٣).

(٢) «فيض القدير» (٨٦/٢).

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب» (٥١٨) وغيرُه، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه الحاكم (٣٧٦/١) وغيره، وحسنه الألباني في «أحكام الجنائز» (مسألة ١١٥).

(٥) «المدهش» (ص ١٠٠).

ونظر إلى صَبية بين جنازة أبيها تقول: يا أبت، مثل يومك لم أره! فضمها الحسن وقال : أي بنية، وأبوك مثل هذا اليوم لم يره! فبكى الخلق[1].

ويروى أن آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز قال فيها: أما بعد، فإن ما في أيديكم أسلاب الهالكين، وسيتركها الباقون كما تركها الماضون، ألا ترَوْن أنكم في كل يوم وليلة تشيّعون غاديًا أو رائحًا إلى الله تعالى؟! وتضعونه في صَدْع من الأرض، ثم في بطن الصَدْع، غير مُمَهَّد ولا مُوَسَّد، قد خلع الأسلاب، وفارق الأحباب، وأُسكن التراب، وواجه الحساب، فقير إلى ما قدم أمامه، غني عما ترك بعده[2].

ويروى أن أبا الدرداء كان إذا رأى جنازة قال : اغدي فإنا رائحون. أو قال: روحي فإنا غادون[3].

وسمع رجلًا يقول في جنازة: مَنْ هذا؟ قال: أنت، وإن كرهتَ فأنا[4].

وهذا كما قيل:

لو كلم المَيْتُ من يشيّعهُ ... لقال لا تَغْتَرِرْ فأنت أنا

وفي «معارف الإنعام»[5]: قال بعض السلف: شيئان قطعا عني لذاذة الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله عز وجل.

اذكر الموت هاذمَ اللذاتِ ... وتهيأ لمصرعٍ سوف ياتي
يا غافل القلب عن ذكر المنياتِ ... عما قليل ستثوي بين أمواتِ
فاذكر محلك من قبل الحلول بهِ ... وتب إلى الله من لهو ولذاتِ

(١) «محاضرات الأدباء» (٤/٤٨٤).
(٢) انظر «حلية الأولياء» (٥/٢٦٦).
(٣) «عيون الأخبار» (٢/٣٠٣).
(٤) «ربيع الأبرار» (٤/١٨٩).
(٥) لابن عبد الهادي (ص ٨٧).

إن الحِمـــام له وقـــت إلى أجـــلٍ فـــاذكر مصـــائب أيـــام وســـاعاتِ
لا تطمـــئن إلى الدنيـــا وزينتهـــا قد حان للموت يا ذا اللُّـب أن يـاتي

وفيها[١]: «قال الحسن: إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم، فالتمسوا عيشًا لا موت فيه.

وقال: فضح الموت الدنيا، فلم يدع لذي لب بها فرحًا.

وقال غيره: ذهب الموت بلذاذة كل عيش، وسرور كل نعيم. ثم بكى وقال: واهًا لدار لا موت فيها!». اهـ.

فتذكر يا عبد الله من رحل من آبائك وإخوانك، وأصدقائك وجيرانك، وأحبتك وخلانك، وتفكر في حال أكثرهم، كيف كانوا بالدنيا يشتغلون، وبالسلامة يغترون، وطول العمر يؤملون، وكيف أتاهم الموت فجأة، وفرق جمعهم بغتة، فلا ما جمعوا تناولوا، ولا ما أمَّلوا نالوا!

قال الغزالي[٢]: «وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضَوْا قبله، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم، وأيتموا أولادهم، وضيعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم.

فمهما تذكر رجل رجلًا، وفصل في قلبه حاله، وكيفية موته، وتوهم صورته، وتذكر نشاطه وتردده، وتأمله للعيش والبقاء، ونسيانه للموت، وانخداعه بمواتاة الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع، والهلاك السريع، وأنه كيف كان

---

(١) (ص ٩٩).

(٢) «الإحياء» (٤/٤٥٢).

يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله، وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه، وكيف كان يدبّر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين، في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر، وهو غافل عما يراد به، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه، فانكشف له صورة الملَك، وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار، فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم، وغفلته كغفلتهم، وستكون عاقبته كعاقبتهم.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذكرتَ الموتى فعُدَّ نفسك كأحدهم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره.

وقال عمر بن عبد العزيز: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديًا أو رائحًا إلى الله عز وجل؟! تضعونه في صَدْع من الأرض، قد توسد التراب، وخلّف الأحباب، وقطع الأسباب.

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها، مع دخول المقابر، ومشاهدة المرضى، هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب، حتى يغلب عليه، بحيث يصير نصب عينيه، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعَذَبَة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد له من مفارقته.

نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها، ثم بكى فقال: والله لولا الموت لكنت بك مسرورًا، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا، ثم بكى بكاءً شديدًا حتى ارتفع صوته». اهـ.

ذكر الموت عند النوم

هذا، وأوصي كل من يريد الثبات على دينه ويحرص على تقوى الله عز وجل، أن يذكر الموت إذا أراد أن ينام، وأن يتخيل أنه قد يموت تلك الليلة، فلا

يرقد ويسلِم نفسه إلى النوم إلا وقد تاب إلى الله تعالى توبة نصوحًا، وعزم على ترك ما هو فيه من الحرام، ونوى إذا استيقظ ورجعتْ إليه روح أن يلزم ورده من تلاوة القرآن بالتدبر، فإنه أهم شيء سيحفظه في حياته من الزيغ والزلل، ويعينه على الاستمرار بالتوبة، ويوقفه على ما فيه صلاحه وفلاحه، وسعادته ونجاته، وهكذا فليكن دأبك يا عبد الله كل ليلة.

وكلما استيقظت فافرح بفضل الله تعالى عليك، أن أمهلك وأمد لك في العمر، واشكره عز وجل على ذلك(١)، فما أعظمها من نعمة! وما أجلها من منحة! لو كنت تعلم!

لو قيل لقومٍ ما مناكمُ طلبوا حياةَ يومٍ ليتوبوا فاعلمِ
ويحكِ يا نفسُ ألا تيقُّظٌ ينفع قبل أن تَزِلَّ قدمي
مضى الزمانُ في توانٍ وهوًى فاستدركي ما قد بقي واغتنمي

فاحفظ هذا يا عبد الله، ولا تغفل عنه، فإنك لو مت تلك الليلة مت وأنت مستعد للقاء الله تعالى، إن شاء الله.

ومن وصية أويسٍ القَرَني لهَرِمِ بن حَيَّانَ: تَوَسَّدِ الموت إذا نمت، واجعله نصب عينيك إذا قمت(٢).

ومما يذكرك بهذا الأمر، ويعينك على عدم نسيانه: المحافظة على أذكار النوم التي تذكِّر بالموت خاصة، فتعاهدها كل ليلة، وأحضر قلبك فيها، وهاكها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ عَنْ فِرَاشِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ(٣) إِزَارِهِ، ثَلَاثَ

---

(١) كما سيأتي فيما يقوله إذا استيقظ.

(٢) انظر «تاريخ دمشق» (٩/٤٤٨)، و«صفة الصفوة» (٢/٣١).

(٣) هي حاشية الإزار التي تلي جسده. «طِيبي».

مَرَّاتٍ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ بَعْدُ، فَإِذَا اضْطَجَعَ فَلْيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، فَإِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ.

فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ»[1].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أراد أن ينام قال:

«بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا». وإذا استيقظ من منامه قال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»[2].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه أمر رجلًا إذا أخذ مضجعه قال:

«اللَّهُمَّ [أَنْتَ] خَلَقْتَ نَفْسِي وَأَنْتَ تَوَفَّاهَا، لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا، إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا، وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ».

فقال له رجل: أسمعت هذا من عمر؟ فقال: من خير من عمر، من رسول الله ﷺ[3].

قال الشوكاني[4]: «في الحديث ذكر الموت والحياة، والدعاء للنفس على تقدير الحياة بالحفظ، وعلى تقدير الموت بالمغفرة، وذلك أن النوم شبيه بالموت، لأن الله سبحانه يتوفى فيه نفس النائم، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٠١) بهذا اللفظ، وحسنه الألباني. وأصله في «الصحيحين»، دون ذكر ما يقوله إذا استيقظ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٢٤، وفي مواضع أُخَر)، وأخرجه (٦٣٢٥، وفي مواضع أُخَر)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٢٧١١)، من حديث البراء رضي الله عنه، كلاهما بألفاظ متقاربة، وأخرجه غيرهما.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧١٢) وغيره. وقد تقدم عند «الدعاء للنفس بالحفظ».

(٤) «تحفة الذاكرين» (ص ١٣٣).

﴿ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر:٤٢]. فناسب ذكر المجيء بهذا الدعاء على التقديرين». اهـ.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَهْبَةً وَرَغْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ».

فقلتُ أَسْتَذْكِرُهُنَّ: وبرسولك الذي أرسلتَ. «قَالَ: لَا، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»[(١)].

قِصَر الأمل

ومن أسباب الثبات: قِصَر الأمل، وهو العلاج الأنفع والحل الأنجع، فلو أخفقت كل الأسباب، بسبب غفلة العبد وضعف يقينه، وبسبب كثرة المشغلات والملهيات، وتنوُّع الدواعي إليها، وبسبب قلة سالكي طريق الحق وغربتهم! لم يخفق هذا السبب.

فيا عبد الله، إن طال أملك، وظننت بُعْدَ الموت، فاعلم أن لَذّاتك (المنغصة المكدرة) ستنقطع وستزول، إن عاجلًا أو آجلًا، وستبقى تَبِعَة الشهوات المحرمة في عنقك! فاقطع عنك التسويف، واعْنَ بالتخويف، فمن خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل[(٢)].

وقد ذم الله تعالى الكافرين على شدة تعلقهم بالدنيا الدنية، وحرصهم على طول البقاء فيها، وتوعدهم وتهددهم، فقال: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۞ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الحجر:١-٣].

---

(١) متفق عليه.

(٢) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ». أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) وغيره، وصححه الألباني.

وقال سبحانه وتعالى في اليهود عليهم لعائن الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦].

قال ابن القيم[1]: «قِصَر الأمل: هو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعثه على معاصفة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مر السحاب، ومبادرة طي صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة، فيقوم بقلبه إذا داوم مطالعة قِصَر الأمل شاهد من شواهد اليقين، يريه فناء الدنيا، وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مدبرة، ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها، وإنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال، ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة، وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعًا».

ثم قال: «وقِصَر الأمل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها، ثم يقايس بين الأمرين ويؤْثر أَوْلاهما بالإيثار». اهـ.

قلت: ومن أبلغ ما قيل في قِصَر الأمل، وهو غاية ما ذُكِر في حَدِّه، تلك المقولة الشهيرة: «صَلِّ صَلَاةَ مُودِّعٍ»[2]، ورُوِيتْ من حديث أبي أيوب رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني وأوجز. قال: «إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ، وَلَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ،

---

(١) «مدارج السالكين» (٤٤٨/١-٤٤٩).

(٢) وتقدمت هذه الجملة بنحوها بلفظ: «وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةً غَيْرَهَا»، فليتنبه!

وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ»[١].

فما بال أحدنا لا يقَصِّر أمله، وهو يرى ويسمع كيف يموت في كل يوم ما لا يُحصى من الأطفال، فضلًا عن غيرهم من الشباب والشيوخ، فعجبًا لنا والله!!

وما هي إلا شدة الغفلة، والاستغراق في اللهو واللعب، فليسارع أحدنا إلى نجاته، وليسلك السبيل الحق قبل وفاته، وليستعن بالله تعالى على الخروج من هذه الغفلة، والتغلب على تقصيره، فإنما هي الأنفاس، فلننتهزها قبل أن تنقطع، ولعل عبدًا اليومَ في آخرها، فحسبنا الله ونعم الوكيل!

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«هَذَا ابْنُ آدَمَ، وَهَذَا أَجَلُهُ، وَوَضَعَ يَدَهُ عِنْدَ قَفَاهُ، ثُمَّ بَسَطَهَا فَقَالَ: وَثَمَّ أَمَلُهُ، وَثَمَّ أَمَلُهُ»[٢].

يعني: ما أبعد أمل ابن آدم! وما أقرب أجله!

وعنه رضي الله عنه قال: خط النبي ﷺ خطوطًا، فقال:

«هَذَا الأَمَلُ، وَهَذَا أَجَلُهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُ الخَطُّ الأَقْرَبُ»[٣].

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: خَطّ النبي ﷺ خطًّا مربعًا، وخَطّ خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخَطّ خُطَطًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال:

«هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ (أو: قَدْ أَحَاطَ بِهِ)، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا»[٤].

---

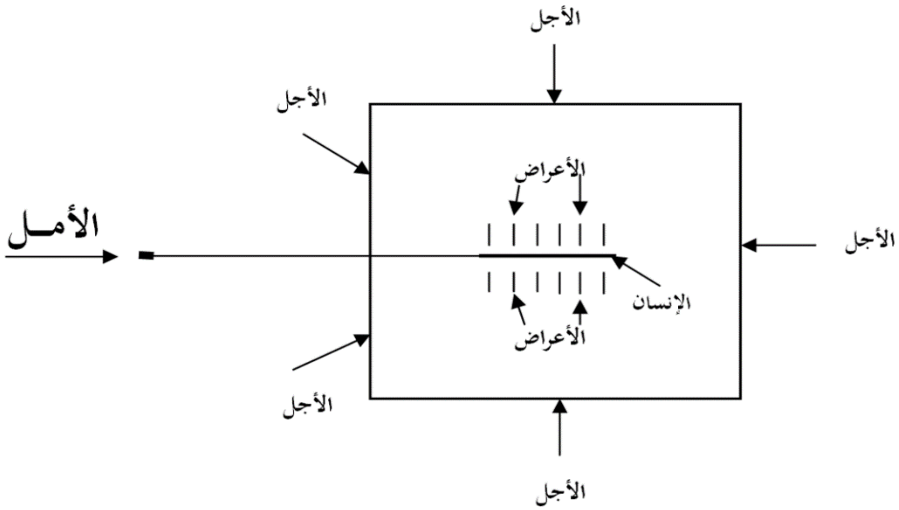
(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٧١) وغيره، وقواه الألباني بشواهده، في «الصحيحة» (١٩١٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٣٤) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤١٨) وغيره.

(٤) أخرجه البخاري (٦٤١٧) وغيره، واللفظ الثاني لفظ الترمذي (٢٤٥٤)، والثالث لفظ ابن ماجه (٤٢٣١).

وهذا رسم الخطوط فيما يظهر:



وعن عبد الله بن الشِّخِّيرِ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«مُثِّلَ ابْنُ آدَمَ وَإِلَى جَنْبِهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ مَنِيَّةً، إِنْ أَخْطَأَتْهُ المَنَايَا وَقَعَ فِي الهَرَمِ، حَتَّى يَمُوتَ»[١].

وعن بشر بن الحارث قال: حادثوا الآمال بقرب الآجال[٢].

وقيل لحكيم: ما أبعد الأشياء من الناس؟ قال: الأمل. فقيل: وما أقرب الأشياء منهم؟ فقال: الأجل.

وقيل: لو ظهرت الآجال لافتُضحتْ الآمال.

وقيل: يا بن آدم، لو رأيت ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا، وَطُولِ الْأَمَلِ»[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٥٠ و ٢٤٥٦) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) «صفة الصفوة» (٢/٣٣٢).

(٣) انظر «محاضرات الأدباء» (٤/٤٧٨).

(٤) متفق عليه، وهذا لفظ البخاري.

وعنه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»[1].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمَنْكِبِي، فقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، [وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ القُبُورِ]»[2].

قال ابن رجب[3]: «هذا الحديث أصل في قِصَر الأمل في الدنيا، وأن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطنًا ومسكنًا، فيطمئنَّ فيها، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر، يهيِّئ جهازه للرحيل، وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم».

قال ابن القيم[4]: «طول الأمل ينسي الآخرة، ويصد عن الاستعداد لها».

وقال[5]: «ليس للعبد أنفع من قِصَر الأمل، ولا أضر من التسويف وطول الأمل». اهـ.

وعن محمد بن نُعيم بن الهَيْصَم، قال: دخلت على بشر في علته، فقلت: عظني. فقال: إن في هذه الدار نملة، تجمع الحب في الصيف لتأكله في الشتاء، فلما كان يوم أخذت حبة في فمها، فجاء عصفور فأخذها والحبة، فلا ما جمعت أكلت، ولا ما أمّلت نالت![6].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٩) وغيره.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦)، والزيادة للترمذي (٢٣٣٣) وغيره، وصححها الألباني في «السلسلة الصحيحة» تحت الحديث (١١٥٧).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/٣٧٧).

(٤) «الفوائد» (ص ٩٩).

(٥) «طريق الهجرتين» (ص ٤٩٠ - طبعة قطر).

(٦) «تاريخ بغداد» (٣/٣٢١).

وقال ابن الجوزي[1]: «الواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله، فإنه لا يعلم متى يفجؤه أمر ربه، ولا يدري متى يُستدعى، وإني رأيت خلقًا كثيرًا غرهم الشباب، ونسوا فقد الأقران، وألهاهم طول الأمل، وربما قال العالم المحض لنفسه: أشتغل بالعلم اليوم، ثم أعمل به غدًا! فيتساهل في الزهد بحجة الراحة، ويؤخر الأُهبة لتحقيق التوبة، ولا يتحاشى من غِيبة أو سماعها، ومن كَسْب شبهة يأمل أن يمحوها بالورع، وينسى أن الموت قد يبغت، فالعاقل من أعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه، فإنْ بغته الموت رُئي مستعدًّا، وإن نال الأمل ازداد خيرًا».

OOOOO

(١) «صيد الخاطر» (ص ٢٨-٢٩).

التسلح بالعلم

فإن معرفة كل ما تقدم وغيره تكون بالعلم، ومن يُرِد اللهُ به خيرًا يفقهه في الدين، وأهل العلم هم ورثة الأنبياء، وهم المصابيح إذا ادلهم الظلام، ينيرون الطريق للسالكين، ويأخذون بأيديهم إلى الصراط المستقيم، وهم أهل الفرقان بين الحق والباطل، يتمسكون بالحق ويحرسونه، وينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، كما ورد.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۩ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الحج:٥٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٞ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص:٨٠].

وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩].

فأهل العلم دون غيرهم هم الذين يخشون الله تعالى ويتقونه، وهم المصدِّقون بالحق، المخبتون له، المذعنون له، المتمسكون به، المداومون عليه.

وهم الدالون عليه، الآمرون بالثبات عليه، المحذرون من الباطل، المُوقِفون الناس على ما فيه نجاتهم.

وكلما ازداد العبد العاقل الموفق علمًا ازداد خشية من الله تعالى، وازداد زهدًا في الدنيا وجانب شهواتها، وازداد رغبة في الآخرة وعمل من أجلها.

والعلم أنواع كثيرة، ودرجات متفاوتة، فابذل جهدك في تحصيله، واطلب منه الأهم فالأهم، واستعن بالله على ذلك، وادعه أن ييسر لك ما ينفعك منه، ويكون سببًا في هدايتك وثباتك، ونجاتك ورفع درجاتك.

قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

ولم يأت في القرآن الكريم طلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

قال شيخ الإسلام[١]: «العلم الأصلي هو العلم الذي بُعِث به الرسل وأُنزل به الكتب، وهو علم الإيمان، وعلم أحوال القلوب، وما تزكو به، من الخشية والإنابة والتوكل والرضا والصبر واليقين والمحبة، والزهد في الدنيا وطلب الآخرة، والحب في الله والبغض في الله، ومحبة الله وكتابه ورسوله، والنصيحة لله ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين، والإخلاص والصدق والشكر لله دائمًا، وعلم شروط الأعمال وما يصححها ويفسدها مما يتعلق بالقلوب، من الرياء والعُجب والغفلة عن معانيها، وغير ذلك مما هو مبسوط في غير هذا الموضع.

ومن ذلك: معرفة النفس وشرورها ودسائسها، من الشِّرَة والحرص والحسد والغضب والكبر والبخل، وحب الدنيا وحب التعظيم وحب الرياسة، ومعرفة الشيطان وكيده ومداخل غروره، ومعرفة موازين الأعمال، وما الذي ينبغي أن يبدأ به، وأيها الذي يرجح على صاحبه عند الله محبة ومنزلة، ومراعاة موقع نظر الرب وإهمال موقع نظر الخلق، ومعرفة حقوق الخلق، مثل الوالدين وذوي الأرحام، والأئمة من أهل العدل والإنصاف، والعلماء العاملين، والصلحاء المقتدين، والمشايخ المهتدين، والجيران، وعامة المؤمنين، وما الذي يجب لكل منهم

(١) وهو ضمن فصل في آخر رسالة مطبوعة معنونة باسم: «فضائل الأئمة الأربعة»!

من الحق، ومعرفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكيفيته وصفته، إلى غير ذلك مما قد ذكر في غير هذا الموضع.

فهذا هو العلم المطلوب من الخلق معرفته، وهو أصل التوحيد الذي ما أنزل الله كتابًا ولا أرسل رسولًا إلا به، ودعوة الرسل كلهم إليه، وسائر العلوم وسيلة إليه.

وبعد ذلك معرفة أحكام الشريعة وأمور الدين، وبعد هذا كله علم الفروع المعروف عن الرسول وعن أصحابه، الأهم منه فالأهم». اهـ.

وبتكرار العلم وتعاهده يرسخ في النفوس، ويستقر في القلوب، فيزداد الإيمان ويقوى، ويصل العبد إلى اليقين.

فاليقين هو: رسوخ العلم، وتمكن الاعتقاد، وقوة الإيمان، فلا ريب فيه، ولا شك يعتريه.

قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر:٥].

أي: لو تعلمون علم اليقين لما أشغلكم شيء عن طاعة الله تعالى، ولسارعتم إلى رضاه، ولبذلتم الجهد في ذلك، ولفعلتم وفعلتم، ولمَا قصرتم قط، ولمَا غرتكم الحياة الدنيا، ولا ألهاكم التكاثر فيها.

ولو وَجد العبدُ اليقينَ حقًّا لصار كأنه في الآخرة، يعاين الجنة والنار، ولجَدّ في العمل في هذه الدار، دائبًا ليل نهار، لا يُعوِّقه الملل، ولا يثبطه الكسل.

قال النبي ﷺ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا»(١).

وعن ابن أبي مُلَيْكَةَ قال: جلسنا إلى عبد الله بن عمرو في الحِجْر، فقال: ابكوا، فإن لم تجدوا بكاء فتباكوا! لو تعلمون العلم لصلى أحدكم حتى

(١) بعض حديث، متفق عليه.

ينكسر ظهره، ولبكى حتى ينقطع صوته![1].

والكلام في أسباب الثبات وما يتعلق به يطول، وفيما ذُكِر كفاية وهداية، إن شاء الله تعالى.

❑❑❑❑❑

(١) أخرجه الحاكم (٤/٦٢٢) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (٣٣٢٨).

خاتمة

وأخيرًا، فاعلم أن الهداية إلى الحق والثبات عليه إنما يكون بالاعتصام بالكتاب والسنة(١)، وبقال الله قال الرسول، ففيهما العصمة من الضلال، والأمان من الزيغ، وفيهما التغلب على الشهوات، والوقاية من الشبهات.

قال الله عز وجل: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»(٢).

وبفهمهما بفهم الصحابة رضي الله عنهم، وهذا قيد يُعَض عليه بالنواجذ، إذ إن كل المسلمين، على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم وطرائقهم! يقولون: الكتاب والسنة، لا يشذ عنهم واحد، وإنما الحق والنجاة بهذا القيد، فَهْم الصحابة، وفَهْم من اقتدى بهم من القرون المفضلة الأولى.

فعن عبد الرحمن بن عمرو السُّلمي، وحُجْر بن حُجْر قالا: أتينا العرباض بن سارية، وهو ممن نزل فيه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ ﴾ [التوبة:٩٢]. فسلمنا، وقلنا: أتيناك زائرين وعائدين ومقتبِسين، فقال العرباض: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن

(١) كما تقدم.

(٢) أخرجه الحاكم (١٧٢/١) وغيره. وهو في «صحيح الجامع» (٢٩٣٧).

هذه موعظة مودع! فماذا تعهد إلينا؟ فقال:

«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١).

فأولئك الذين هدى الله، فبهداهم اقتده، وبإيمانهم تمسك، وبعقيدتهم التزم، ولا توحشك قلة سالكي هذا الطريق، ولا ضعفهم ولا كسلهم أو نكوصهم، فأنت على الحق ولو كنت وحدك.

فالولاء الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، والبراء البراء ممن حادّ الله ورسوله واتبعَ غير سبيل المؤمنين.

قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١]. إلى أن قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٥٥-٥٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران:٢٨].

وقال سبحانه: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) وغيره، وصححه الألباني.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٣-٢٤].

وقال عز وجل: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤].

وقال تبارك اسمه: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر: «أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ ـ أظنه قال: ـ أَوْثَقُ؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال:

«الْمُوَالَاةُ فِي اللهِ، وَالْمُعَادَاةُ فِي اللهِ، وَالْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ»(١).

فيا من أنعم الله عليك بنعمة الإيمان والقرآن، والثبات على الدين والإسلام، أرِ اللهَ تبارك وتعالى منك شكرَ نعمته، بتولي أوليائه ومعاداة أعدائه، كما أَمَر تعالى نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [القصص:٨٦].

وكان سبحانه قد قال قبلها في نفس السورة حاكيًا عن كليمه موسى عليه

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٥٣٧) وغيره. وهو في «الصحيحة» (١٧٢٨).

الصلاة والسلام: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص:١٧].

فتأمل!!

قال شيخ الإسلام(١): «ولْيُعلمْ أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك، فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام لأوليائه والإهانة لأعدائه، والثواب لأوليائه والعقاب لأعدائه».

قال ابن مفلح(٢): «قال ابن عَقيل: إذا أردت أن تعلم مَحَلَّ الإسلام من أهل الزمان فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم في الموقف بلَبَيْكَ، وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة!». اهـ.

ولا أرى معنًى لما يسمى بـ«الحياد» في هذا الزمان إلا «الذبذبة»، كما في قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤٣].

فالحق واضح أبلج، والباطل متردِّد لَجْلَج، ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس:٣٢].

قال ابن كثير عن شيخ الإسلام في حرب التتار(٣): «وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني. فتشجع الناس في قتال التتار، وقويت قلوبهم ونياتهم، ولله الحمد».

فطوبى لك يا عبد الله! إن كنت من المتمسكين بدين الله تعالى، المعتصمين بكتابه، المتبعين لرسوله ﷺ، فصرت من حزب الله المفلحين، وعباده الفائزين،

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢٠٩).

(٢) انظر «الآداب الشرعية» (١/٢٤٧).

(٣) « البداية والنهاية » (١٤/٢٤).

الصالحين المصلحين، الذين نالوا عِزّ الدنيا وشرف الآخرة، فلم يُضِعِ اللهُ أجرَهم، ولم يَتِرْهم أعمالَهم.

قال تبارك اسمه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٠].

وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك النبي الأمي، وعلى آله وصحبه، وسلِّم.

والحمد لله رب العالمين.

كتب

محمد شومان الرملي

١٤٤٣هـ

الفهرس

الفهرس

تم بحمد الله